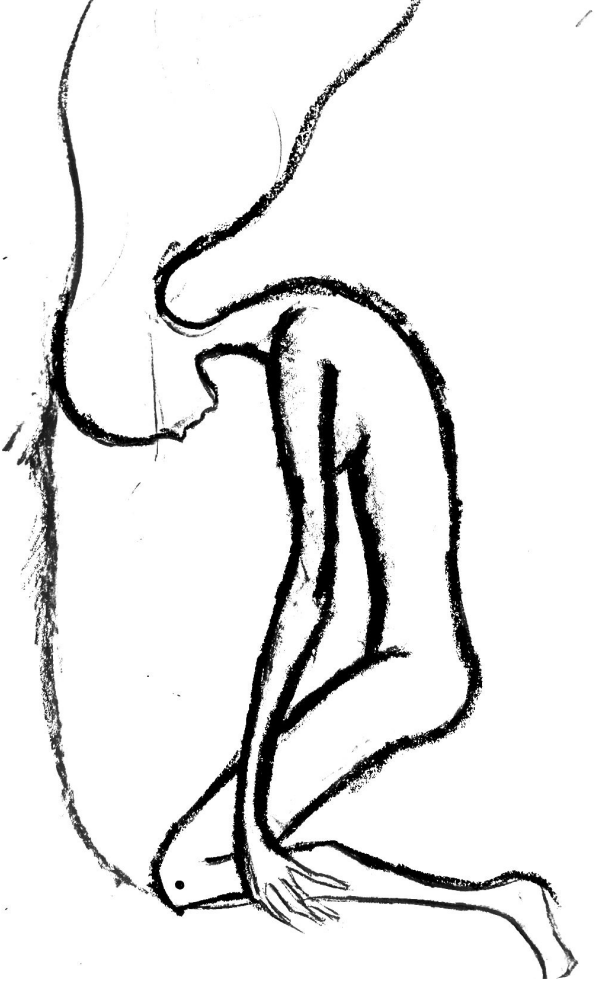

أفروديت

كل الحقوق محفوظة

دار لوغاريتم للنشر والتوزيع

رقم الإيداع: 28845/ 2019

I.S.B.N: 978-977-6642-98-0

تصميم الغلاف: ضياء إبراهيم.

الإخراج الفني: ضياء فريد.

المراجعة اللغوية: أميرة أسامة.

المديـــر العـــام: إيناس ناصر.

المدير التنفيذي: شادي أبو شهبة

Logarithpublish@gmail.com

٠١٢٨١٠٥٢٨٢٤

أفروديت

رواية

أحمد أيمن

إهداء

إهداء إلى..

لا أحد،

فلم يعد هناك من يبقى ليشاهد هذه الأوجاع المستكينة.

هذه ليست فانتازيا، وليست أيضًا شيئًا من الواقع، ولا محضًا من الخيال، بل هي الصدفة، نعم الصدفة، فمن يملك تلك الأبواب القادرة على أن تذهب به إلى أي زمانٍ وأي مكانٍ تريد، ستعلم جيدًا أن شِبَاك الصدفة تتمتع بالحقيقة الخيالية.

لم يكترث له أحد، ولم يكترث له هذا العالم المُشيد بالخداع والتزييف والافتراء، فكل شيءٍ قد أحبه رحل، رحل دون أن يخبره بموعد رحيله، أصبح إنسانًا.. إنسانًا! لا، فهو لا يحمل أي شيءٍ تدعو له الإنسانية، إنه مجرد شخصٍ من جنس بني آدم، لا لا، بل هو إنسان قد خلت من بعده الإنسانية، كان يقف في وجه الظلم بمقالاته الجريئة، كان يقف أمام الكذب بأفكاره الصادقة الورعة، فبرغم كل شيءٍ رحل عنه ظل كما هو محبًا وملمًا بالقراءة والكتب، ومولعًا بالعزف على آلة العود، لكن هناك شيء ما ينقصه لا يعلم ما هو، نعم رحيل شيءٍ ما!

أهو رحيل ابنه الذي لم يأتِ بعد؟

لا لا، بالطبع لا.أهو رحيل زوجته التي لم يختَرها حتى الآن ولم يتزوجها؟!

لا أظن هذا أيضًا، إذًا ماذا ينقصه الآن؟

نعم تذكرت، الشغف، فقدانه للشغف قد أطفأ بداخلهِ كل شيء، كل شيءٍ بالمعنى الحرفي، فالماضي يا صديقي والذكرى المؤلمة قد تُطفئ كل شيء..

نعم..

فكل ما كان يُمكنه أن يُطفئ كل ما سيكون، والأوجاع والصدمات يمكنها أن تجعل منكِ فتاتًا لشخصٍ قرر أن يَحيا دون أمل، دون هدف، دون ابتسامة، دون شغف.

يجلس (عابر) على مكتبه لا يعلم من أين يبدأ ولا إلى أي سطرٍ ينتهي، ولا على أي جُرحٍ يرسو، لا يمكنه أن يُلملم شتات أفكاره في بعض الكلمات، صِدقًا لا يمكنه حتى أن يمسك القلم ويعبث بتلك الورقة، هو فقط ينظر إلى تلك الورقة البيضاء وكأنها شاشة عرضٍ سينمائي يشاهد فيها فيلمًا ما، أو بالمعنى الأحرى يشاهد فيها ماضيه الشائب بالأوجاع المستكينة.

ما زال يُحملق فيها حتى مزقها إلى ورقيات صغيرة كأنه يمزق في مخيلته هذا الماضي الأليم، فقد تحمَّل الكثير حتى أشفقت عليه كلماته وعجزت على أن تصف جزءًا صغيرًا مما مر به، فقد تحمَّل توبيخ رئيس التحرير المسؤول عن تلك الجريدة التي كان يعمل بها، وتحمل نظرات زملائه، تلك النظرات التي تتهمه بالجنون، متسائلين كيف لهذا المخبول أن يحارب نظامًا كاملًا؟! كيف له

هذا؟! ولا ننسى أيضًا اتهام الكل له بالمجون والزندقة، وأن كثرة القراءة قد سببت له جنونًا مبكرًا، فهذا الشخص الذي لم يتجاوز عمره الثلاثين عامًا قرأ مئات الكتب تقريبًا وأمهاتها، قرأ كل شيءٍ قد يخطر في مخيلتك، أدب فرنسي، إنجليزي، روسي، ألماني، حتى الأدب الصيني، كان إن وجد ورقةً ما ملقاة على الأرض يلتقطها ليقرأها، كان أشبه بالمهووس بكل ما هو مكتوب، حتى إنه قد قرأ في العلوم الروحانية وعلوم الطاقة، لم يدع فرعًا واحدًا من فروع القراءة لم يقرأه.

وها هو ذا، ينهض من على مكتبِهِ واقفًا أمام مكتبته، ناظرًا إلى هذا الصرح الكبير من الكتب العتيقة البراقة، متأملًا هذا الكم الكبير من المعرفة، فتلتقط أذناه وتستنتجان أن شيئًا ما قد سقط، لينظر عن يمينه ليجد أحد كتبه قد سقط من على إحدى الرفوف، فيلتقطه ويجده بعنوان «الأساطير الإغريقية»، يتذكر إنه قد قرأ هذا الكتاب من قبل، لكن لم يكن قد انتهى منه بعد، فتأمله بعض الشيء قائلًا:

- يبدو أنك ستكون رفيق تلك السهرة يا صغيري، سأنتهي منك تلك الليلة، لا تقلق، فأنت أول كتابٍ اخترتني قبل أن أختاره، وهذا شيء لو تعلم فهو عظيم.

ليُشرِع الباب فجأة ويجد والده بنظرته العبوسة التي تحمل الحسرة وعدم الثقة تتجه إليه، فـ (عابر) ليس الابن الوحيد للأستاذ (أنور)، فلديه اثنان آخران، ولكنهما قد تزوجا وتحمل كل منهما مسؤولية الحياة الزوجية، مع أن (عابر) هو الابن الأكبر لكنه لم يتزوج حتى الآن، ولا يفكر في أخذ الخطوة في هذا المشروع الفاشل بالنسبةِ له، فكلما تقدم العمر بالشاب تبتعد فكرة الزواج عن أفكاره ومخيلته كابتعاد السجين عن الحرية.

يُلقي الأستاذ (أنور) محاضرة التربية والمنفعة الأسرية على عاتق ابنه الأكبر في كل ليلةٍ يجد فيها ابنه يفعل الشيء الذي يهواه ويحبه، فكلما وجده يقرأ أو يعزف على آلته الخاصة يلقي عليه تلك المحاضرة التي من أشهر جملها هي: «لقد كبرت على هذه التفاهات، لمَ لا تبحث عن عملٍ آخر؟ ألن تستقر في بيتك؟ لقد قاربت على الثلاثين من عمرك، دع هذه الآلة قبل أن أحطمها فوق رأسك».

كل هذه الجُمل تُقال لهذا المسكين كل يوم، كل هذه المُعاناة تتكتل على عاتق حالته النفسية التي تزداد سوءًا كل يوم، هو يهرب من كل هذا بكل شيءٍ يهواه ويحبه، يهرب من هذه الكلمات القاسية بكلماتٍ أخرى تتناثر في كتاب يمتلكه ويصاحب وحشته، يهرب من هذا الصياح اليومي بنغمات آلته الخاصة وعزفه لتلك النغمات بطريقةٍ احترافية تجعل من صيحات والده سرابًا في هذا

البيت المشؤوم، عادةً يفكر في أن يترك لوالده هذا الجُحر المظلم له ولصيحاته المستمرة ويشتري شقة أخرى خاصة به من المال الذي جمعه خلال عمله، لكن هناك سببًا واحدًا يمنعه من الرحيل، لا بل هناك سببان في الواقع، السبب الأول هو إنه لا يريد أن يترك والدته وسط هذه الصيحات بمفردها، والسبب الثاني هو الذكرى، ذكرى حبه الأول والأخير، أو كما يقولون حب «بنت الجيران»، فقد تربى كلاهما سويًا في نفس العمارة ونفس المدرسة ونفس الفصل، كان كل منهما ظلًا للآخر، كان يعشقها من الصِغر ويُقدم لها عشقه بنظراته البريئة المُحبة، وكانت تبادله العشق أضعاف أضعاف ما يبادلها، حتى نضج كل منهما على هذا الحب البريء، لكن كما نعلم العلاقات في هذا الوطن لا تستمر، فبنت الجيران الآن أصبحت أمًا، صار لها زوجٌ غير هذا الطفل العاشق المتيم بعشيقته، صار لها طفلة تشبهها بكل شيءٍ ولا تشبهه هو.

مكوثه في هذا البيت يعتمد على هذين السببين، فبرغم زواج (حور)، تلك الفتاة التي استباحت حرمة قلبه منذ الصغر إلا أنه يحيا على ذكرى هذا الحب الجميل، وتلك الذكريات المكلومة في ذاته، فبرغم جمال تلك الذكريات إلا أنها تبعث في داخله بعض الألم والشوق لما فات وما مضى وما كان.

يغلق والده باب الغرفة بعد أن ألقى محاضرته التي تقع على نفس (عابر) بالضجيج النفسي بما تحمله من أوامر والتزامات أخلاقية ومجتمعية، فهذا العجوز لا يعلم أن هناك فجوة كبيرة بين عالم المعاشات وعالم الحرية وتكسير القيود، ـدعونا منه الآن- فـ (عابر) لا يردعه شيء مهما كانت الظروف التي تترصد به، ليفتح الكتاب ويشرع في قراءته ويغوص في عالم من الأساطير والخيالات والحروب والخيانات والحب والهجر والشوق والقتل، فهذا الكتاب لا يقص بعض القصص عن الآلهة الإغريقية والربات الإغريقيات فقط، بل يحكي لنا عن معنى الشغف، معنى الحب، نعم معنى الحب، فأسطورة "هاديس» إله العالم السفلي «بيرسيفوني» وعشقه لها تصف لنا معنى الحب، فمن رجلٍ قاسي تحبه كل آلهة الأوليمب إلى عاشقٍ ولهان يستمد قوته من حبيبته، وأساطير أخرى تعلمنا معاني قد تناساها الجنس البشري، ليقوم بعد أن يقرأ بعض صفحات الكتاب ويعزف على آلة العود التي تمثل له ملكوتًا بداخل العالم، كلام يكسر الصمت، حنين في جوف القسوة، لقاء بعد الفراق، تمثل له الحرية، نعم الحرية، فهي من أيقظت بداخله إحساس الشغف، أيقظت هذا الطفل التي تسببت الأيام بقتله والتمثيل ببراءته، أيقظت من كان ينتظر الموت من بعد صدمات كادت أن تودي بقلبه إلى التهلكة، فيبدأ بنغمات أغنية «كل دا كان ليه» ويتعايش بداخل كل نغمةٍ من نغماتها، يراقص

الألحان، يداعب الأوتار، يعزف تلك المقطوعة بروحه وليس بيديه والريشة، يعزفها ويسمع بالخارج صيحات والده التي تستهجن كل ما يفعله وهو يشين ويهاجم ما يفعله هذا المسالم، فهو يحيا في صراعٍ دائم منذ ولادته مع هذا الرجل السبعيني، لم يجد منه حنانًا وعطفًا، لم يجد من يرشده ويوجهه إلى طريق الصواب، بل الكتب هي التي أرشدته وعلمته وحنت عليه، ربما لم يجد من يستحق كلمة «والدي» سوى تلك الكتب الملمة بكل أنواع المعرفة، لكن دعونا ننظر بعيني أصحاب المعاشات كي لا نظلم أحد، الأستاذ (أنور) بالتأكيد يحب ابنه برغم تلك القسوة النابعة منه، لكن هناك شيء غير مفهوم، كيف يحبه وهو يعامله بكل تلك القسوة؟!

وكيف يتهمه بالتقصير في كل شيء وهو لم يقصر؟!لماذا كل تلك الاتهامات؟ربما إن أصبحنا أباءً في يومٍ ما سنعلم هذا السر المحير!

كل يوم يمر على (عابر) في هذا البيت لا يأتي بجديد، بل يشبه كل يوم مضى، لا يفعل شيئًا سوى أنه يقرأ ويكتب ما يقع على خاطره، ويعزف ما يشعر به من ألم، لكنه يشعر أن حياته ينقصها شيء، هناك حلقة مفقودة لا يعلمها، يشعر بأن هناك مفاجأة ستحدث، لا بل هي كارثة، لا لا، بل هي شيء سيصدم الجميع، لا يعلم، لكن حدسه لم يخطئ أبدًا!

ينتهي من تلك الوصلة الموسيقية ليخرج إلى شرفته يتأمل السماء، يرمقها بنظراتٍ تكاد أن تحمل لها العتاب، لتتماسك الفكرة في رأسه تماسك العجوز لعكازه ويجد أخيرًا ما يكتبه في تلك الليلة، ليذهب مسرعًا إلى مكتبه ويأتي ببعض الأوراق معنونًا إياها بعنوان «رسائل إلى السماء»، ليبدأ كاتبًا:

«لا أجد حقًا ما أبدأ به، ولا أعلم هل من حقي أن أعاتب السماء على ما فعلته بي أم لا؟! حقًا لا أعلم ولا أشعر بأي شيء، هناك شيء بداخلي يدفعني لكتابة تلك الترهات ولا أعلم ما هو، لكن أتمنى صدقًا أن تسامحني على ما سأقول يا الله..

أما بعد..

فعليَّ أن أعترف بأني مُهلك يا الله، لا أملك سوى بعض الكلمات التي تُسلب مني علانيةً، فهل حقًا ستسلب مني قدرتي على أن أفصح عما بداخلي بالكلمات؟! صدقًا يا الله هل ستسلب مني هذا أيضًا؟!!

يا الله.. أنا هذا الطفل الباكي الجالس أمام السماء يدعو لك، أتذكرني؟ نعم تذكرا! حسنًا لمَ فعلت بي هذا؟! أقسم لك أنني لا أعترض على قضاءك أو مشيئتك، لكني أريد أن أعرف السبب يا الله، فكل متهم يعرف ما هي تهمته المعاقب عليها، إذًا ما هي تهمتي لأستحق كل هذا العقاب يا الله؟ أخبرني

رجاءً، أنا ممزق يا الله، حقًا ممزق ولا أستطيع أن أعيد تلك الفتات المحترقة من روحي لأصلها ببعضها مجددًا، فإن كان هذا العقاب لما فعله جدي آدم قديمًا فأنا ليس لي ذنب، بجانب هذا أنا لا أحب التفاح أيضًا، فلمَ كل هذه الصواعق المرسلة إليّ؟!

ألم أكن جديرًا بأي شيءٍ ولذلك سلبته من بين ضلوعي صدري؟! ألم أكن لك العبد الطائع الورع؟ لكن صديقي (فهمي) مثلي وتعطي له كل شيء، فلماذا أنا المرصود دائمًا؟! أخبرني يا الله ليطمئن قلبي فقد صار يحترق كالرجل، رجاءً أخبرني ولن أنبس ببنت شفه، بعد ذلك أقسم لك بروحي وبعظمتك أنني لن أتجاوز حتى السموح، فقط أخبرني ما الذي ارتكبته لتعاقبني هذا العقاب الذي لا يليق بعظمتك؟!

سأكتب لك كلما احتجت يا الله، فأنا حقًا أحتاج إلى من يفهمني -كدت أن أنسى- اعذرني على تطاولي رجاءً فلا أعرف غيرك للبوح بما داخلي له، اعذر قلمي على ما قال وما سيقول يا الله...».

«أحد خلقك»

***

لا يعلم ما يجب عليه فعله، هو شخصٌ تائهٌ في هذا الملكوت الفسيح المتهدج بالبكاء والألم والصراعات، فلا تُملي عليه رجاءً ما يفعله هذا الشخص لأنه مجبر على كل شيءٍ قد مر به، مجبر على أنه نشأ وسط أسرة لا تُشجع على أي شيء، مجبر على أن تهجره محبوبته وتتزوج بغيره، مجبر على أن يلتزم بمقالاته التي تحايد النظام، مجبر حتى على أن يتنفس الأكسجين في بعض الأوقات، يُفكر ويجول في خاطره أنه لمَ أجبرتني على الأكسجين يا الله؟ فربما كنت مثل النباتات والزهور أُفضِّل ثاني أكسيد الكربون، فلماذا كل هذه الإجباريات المتلازمة في حياتنا؟ ربما هي حكمة سنعلمها قريبًا أو بعيدًا، لا يهم ففي آخر المطاف سنعلمها.

يجلس (عابر) على أحد مقاهي وسط البلد ينتظر صديقه (فهمي)، فقد أخبره بأن هناك موضوعًا هامًا يريد أن يتناقش فيه معه ولم يخبره تفاصيل هذا الموضوع، منتظرًا إياه وهو يتأمل الجالسين العابرين، يتذكر تلك الطاولة هناك، يتذكر كيف كانت من الشاهدين على قصة حبه المستكينة مع محبوبته (حور)، يتذكر حديثهما معًا، يتذكر هذا الموقف، هذا الحديث، هذه العيون، تلك الشفاه، يتذكر كيف كانت ملامحها الملائكية تنبسط على قلبه كالوحي للأنبياء، يتذكر عندما كان جالسًا على تلك الطاولة قائلًا لها:

ـ أتحبينني؟

قالت وهي تنظر له بتعجبٍ شديد وقالت:

ـ ألا تعلم؟!

نظر لها بابتسامتهِ التي كان يخصها بها ويقول:

ـ أتعلمين قصة النبي إبراهيم والطير؟

ـ لا أتذكرها حقيقة.

ليمسك بيديها، ناظرًا لعينيها متأملًا نفسه وهو غارقٌ فيهما ليقول:

قال سيدنا إبراهيم برغم نبوته وعلمه إلى المولى: «أرني كيف تحيي الموتى»، فقال الله: «أولم تؤمن»، ليقول سيدنا إبراهيم: «بلى ولكن ليطمئن قلبي»، فأخبريني رجاءً ليطمئن قلبي.

لتشيح بخصلات شعرها وراء إحدى أذنيها وعلى وجهها شبح ابتسامةٍ ممزوجة باحمرارٍ ياقوتي في وجنتيها قائلة:

ـ من أين لك بهذا التشبيه؟!

ـ من عينيكِ الغارق فيهما.

لتتسع ابتسامتها وتقول:

ـ بالطبع أحبك، اطمئن أيها المجنون.

ليلتقط تلك الكلمة من بين شفتيها قائلًا:

ـ مجنون بتلك الابتسامة.

ويظل يرددها حتى يدخل عليه صديقه (فهمي) محدثًا:

ـ أي ابتسامة أيها المجنون؟!

ليستيقظ (عابر) من فجوة الذكريات تلك قائلًا وهو في حالة انتباه:

ـ ها!، لا شيء لا شيء، مجرد أضغاث ذكريات موؤدة نبشتها مرة أخرى.

ليربت (فهمي) على كتف صديقه جالسًا بجواره ويقول:

ـ انسَ يا صديقي، كل منا سيرحل عاجلًا أم آجلًا.

ـ شكرًا لك على تلك المواساة الرائعة.

ليضحك كل منهما ليكمل (عابر) حديثة بصيغةٍ جدية قليلًا:

ـ حسنًا، ما هو الموضوع الهام الذي كنت تريدني فيه؟ليحاول أن يقنعه (فهمي) بالوظيفة الجديدة ليعود لمجال الصحافة مرة أخرى، فقد كان (عابر) كاتب وصحفي عبقري يتسم بالجرأة المفرطة في مقالاته المهاجمة للنظام السابق، فلا داعي لذكر ما حدث له إثر كتاباته تلك، فقد أخذته مباحث أمن الدولة ليعلموه كيفية كتابة المقالات من الألف إلى الياء من جديد! فلا داعي لشرح ما حدث هناك، فكلنا نعلم ماذا حدث هناك، وربما ما حدث به يفوق كل تخيلاتنا، فعندما خرج من هذا الجحيم قدم استقالته على الفور من الجريدة، وبعدها بأسبوع فقط سمع خبر خطبة حبيبته (حور)، فقد توالتً

عليه الصدمات كما تتوالى الصواعق من السماء، منذ ذلك الحين وحالته النفسية تسوء يومًا بعد يوم، حتى إنه يرفض العمل في أيةِ جريدة خوفًا من أن يحدث له ما حدث له قديمًا، بمعنى أصح أصبح معقدًا من المقالات المعلنة على الناس، هو يكتب لنفسه فقط حاليًا، حتى إنه لا يُرِي صديقه أيًا من كتاباته.

وظل (فهمي) يقنع صديقة مدة زادت عن الساعة والنصف وهذا وكأنه لا يسمع، لا يرى، فقط يعارض كل كلمة يقولها صديقه له، حتى إنه بدت على وجهه العصبية، وبدأ صوته يرتفع برفضه لهذا العرض لدرجة أن أحد الحاضرين قد لاحظ هذه المشادة، ليعلوا صوت (عابر) قائلًا:

ـ بعد كل هذا وأنت لا زلت مُصرًا على رأيك؟ أهذا الموضوع الهام الذي كنت تريدني فيه؟!

ليجيبه صديقه وهو يحاول أن يهدئ من روع صديقه متلعثمًا:

ـ ليس بالضبط، فهناك ما هو أهم.

ـ حسنًا، دعنا من هذا الحديث الممل وأخبرني ما هو الأهم؟

ليخرج (فهمي) من حقيبته كتابًا ويضعه أمام صديقه ويقول له متحمسًا:

ـ هذا هو الموضوع المهم.

يمسك (عابر) الكتاب متحمسًا يريد أن يعرف ما بداخله، فهو يُقدس شيئًا يسمى الكتاب، فالكتب بالنسبة له أهم من أشخاص كثيرين في حياته، أو بمعنى أصح هم بالنسبةِ له بمثابة أشخاص يتعامل معهم، لا.. لا دعنا نقول أن الكتب بالفعل أصدق من أشخاص كثيرة موجودة في حياتنا، فهي لا تكذب عليه في شيء، أما البشر يكذبون، هي لا تنكر فضل أحد عليها فهي تذكر من أول اسم كاتبها حتى اسم من صمم غلافها، أما البشر فهم ناكرون لأي فضلٍ وأي جميل، فكل كتاب قد قرأه (عابر) يشعر عند الانتهاء منه بأنه أحد أصدقائه المقبلين على السفر، ويقبل هو عليه بالتوديع الحار.

عندما نظر (عابر) للكتاب وجد أنه كتاب Astral dynamics للكاتب روبرت بروس، وقد كان يبحث عن هذا الكتاب منذ فترةٍ كبيرة ولم يجده، فهذا الكتاب يشرح كل شيءٍ قد يتحدث عن عملية الإسقاط النجمي، لكن ما هو الإسقاط النجمي؟

ستعلم كل شيء في وقته المناسب يا صديقي، أما الآن فدعونا نرى شغف هذا الرجل وهو يعود من جديد.يمسك الكتاب وكأنه ممسك بطفلٍ قد تاه منه وظل يبحث عنه حتى وجده أخيرًا، ليحتضن صديقه ويشكره على هذه الهدية الرائعة ويقول له:

ـ شكرًا لك يا صديقي، أنت لا تعلم كم أسعدتني اليوم، لكن ما مناسبة تلك الهدية؟

يرد عليه (فهمي) وهو واضعٌ يديه على خديه:

ـ مناسبتها يا أستاذ هي الوظيفة الجديد التي أتيت لك بها، لكن محاولاتي قد باءت بالفشل.

ـ صدقًا بعد تلك الهدية سأفكر في عرض العمل هذا.

تلمع عينا صديقه معتدلًا في جلسته ناظرًا له بدهشةٍ:

ـ حقًا؟!

ـ لكن لا تأمل أن أوافق بهذه السهولة.

ـ يا سيدي المهم أنك ستفكر بالأمر.

ليكملان سهرتهما معًا متسامرين متحدثين عن ترتيبات (فهمي) لزفافه القريب من زميلته في العمل (سارة)، مباركًا له صديقه عما سوف يجني من هذا القرار مُعزيًا إياه في الوقت نفسه عما سيفقد من الحرية بقيود المسؤولية تجاه بيته وزوجته وأولاده إن رزق بأولاد في هذا المستقبل الغامض، مُكملين في هذه التفاصيل المستقبلية سارحًا (عابر) في ذكرياته مع (حور) وكيف كان الاثنان يخططان لمستقبلهما معًا، فتضع (حور) أسماء البنات، ويضع (عابر) أسماء البنين، مخبرًا إياها أنه يريد أن يكونوا هؤلاء الأشقياء يشبهونها وهي تتمنى العكس، لكن القدر والنصيب والقضاء كان له نظرة أخرى في هذه العلاقة.

ينتهي كل منهما من هذا الحديث، ليقوم (فهمي) مستأذنًا صديقه في الرحيل لترتيب أموره المقبل عليها، ليقوم هو الآخر مودعًا إياه في حميميةٍ زائدة إثر هذه الهدية الرائعة، ليخبره (عابر) بامتنانه الشديد بهذه الهدية، فيغادر (فهمي) من المقهى تاركًا صديقه جالسًا بمفرده ناظرًا للكتاب بلهفةٍ شديدة، فيحاول أن يشكر صديقه مجددًا على تلك الهدية الغالية ملتفتًا إليه قبل أن يرحل فلا يجد لـ(فهمي) أي أثر، كأن هناك شبحًا قد اختطفه ورفعه إلى السماء، متعجبًا (عابر) من هذا الاختفاء الغريب لكن لا يهم، فهذا الكتاب قد هوَّن عليه الكثير والكثير والكثير، فهو على أتم الاستعداد ليرى هذا العالم الجديد بعيني الإسقاط النجمي!

***

أنت الآن في عالم آخر وفي زمنٍ آخر أيضًا.

أين؟ في بلاد الإغريق.في أي زمن؟لأكون دقيقًا معك أنت في عام ٧٧٦ قبل الميلاد.

أنا أيضًا مثلك لا أعلم ماذا جاء بنا إلى هنا؟ لكن هناك جواب أكيد على كل تلك التساؤلات التي تدور في رأسك، لكن لا تتعجل يا صديقي، لا تتعجل على معرفة الحقيقة المطلقة، فقط اهدأ واستمع إلى تلك المؤامرة.

من أعلى قمة من قمم جبل أولومبوس، تجد قصر الإله (زيوس) متوجًا بالسحب الملونة، ومزخرفًا بالياقوت واللؤلؤ، تملأه المساحات الخضراء والأزهار والورود، ينبع من هذا القصر نهرٌ يلتف حول هذه الحدائق والبساتين ليرويها بالعسل والخمر والنبيذ، فإن نظرت لأعلى ستجد الجمال بعينه يطل من شرفة ما ناتئة من هذا القصر المرجاني، تجد امرأة.. امرأة؟! لا لا بل هي حورية.. حورية؟! لا لا بل هي ملاك، نعم ملاك إن كان هناك أسمى من الملائكة لشبهتها به، لكن هذا النوع من الجمال لا يشبه شيئًا، بل يشبَّهُ به فقط، تجدها مستندة على سور شرفتها والريح تتهادى بين ضفائرها تغازل هذا الصرح من الجمال، يمكن لأي شيءٍ أن يُصبح بجمالها حين تقع عيناها عليه حتى وإن كان مسخًا، لا تتعجب ولا تندهش، هذه الحقيقة، فأنت تشاهد الآن في مخيلتك إحدى أجمل آلهة جبل أولومبوس والزوجة الشرعية للإله (زيوس)، إنها الفاتنة (هيرا)، لكن برغم هذا الجمال الوضَّاح إلا أن (زيوس) زير نساء لا يستطيع أن يحيا دون أن تكون له عشيقة في حياته المليئة بالنزوات وانسياقه وراء غرائزه الشهوانية، هذا يجعل (هيرا) تستشيط غضبًا وغيرة، لكنها لا تقوى حتى على الاعتراض، فهو (زيوس) كبير آلهة جبل أولومبوس، يخضع الكل تحت أوامره لكنه لا يخضع لأحد، تنحني له كل الآلهة وتنصاع لكل كلمةٍ يقولها، لكنه لا ينصاع إلا وراء رغباته فقط، لكن كل

تلك النزوات لا تقلق (هيرا)، فقط يقلقها امرأة واحدة، امرأة فاقت كل ربات أولومبوس جمالًا وحُسنًا، امرأة ترسل بعينيها الربيع ليملأ البساتين بالنجوم المرصعة بعينيها، فهي تمتلك عينين إن تأملتهما ستجد كونًا آخرًا، لا بل ستجدهما ملكوتًا، تلك المرأة إن تأملها (زيوس) بعيني العاشق سينسى أيةَ امرأةٍ قد رآها، سيطير عقله من قبلة واحدة، فتلك القبلة يمكنها أن تجعل (زيوس) خاتمًا في يدها، فهي ليست فائقة الجمال فحسب، بل هي الجمال ذاته، هي المعشوقة وليست العاشقة، لم تعشق أحدًا من قبل، هي تُعشق فقط، لا تعلم ما هي شِباك الحب، فلم تقع بها من قبل، لم تغرم بأحدٍ بل كل آلهة أولومبوس مغرمين بها، يتمنون فقط أن تنظر لهم بعينين مبتسمتين، لن أنتهي إن ظللت أصف لكم جمالها، بل سأحتاج لأعوام وأعوام، وقرون وقرون لأصف لكم فقط جمال ابتسامتها، فما بالكم بها ككل؟

تدخل (هيرا) من شرفتها لداخل القصر وآثار الحزن تجتاح وجهها، لتلتقي بالربة (أثينا)، آلهة الحكمة والحرب والتخطيط، وتلاحظ تلك ملامح الحزن على وجهها لتتعجب من هذا الحزن الشديد لتسألها قائلة:

ـ ماذا بكِ يا هيرا، لمَ كل هذا الحزن على وجهك؟!

لتتنهد الربة (هيرا) في أسى لتقول:

ـ لا شيء يا أثينا، لا شيء.

ـ لا، يبدو عليكِ الحزن الشديد، ماذا حدث؟!

تجلس (هيرا) على أحد مقاعد الغرفة بجوار (أثينا):

ـ أخشى أن تسلب تلك المرأة زيوس مني.

لتضحك (أثينا) ضحكات عالية قائلة:

ـ لا تقلقي يا عزيزتي، فزيوس لا يُسلب بل يَسلب فقط ما يريده، وأنتِ تعلمين أيضًا أن رغم نزواته تلك لكنه يحبك، وأيضًا أنتِ زوجته الشرعية الوحيدة، فلا تقلقي كل شيءٍ على ما يرام.

ـ لن أهدأ حتى أتخلص من تلك المرأة.

لتصمت (أثينا) عن الرد مفكرة في طريقةٍ تُهدئ بها الربة هيرا لتقول عنوة:

ـ إذًا لماذا لا تجعلين زيوس يعاقبها دون جريمة؟

ـ كيف هذا؟!

تبتسم (أثينا) ابتسامة كالجليد لتقول:

ـ سأدع الأمر لكِ، لقد أعطيتكِ قطعة صلصالٍ ويجب عليكِ أن تشكلينها كما تحبين.

تقوم (أثينا) من مجلسها تاركة (هيرا) في حبلٍ من الأفكار لا ينقطع، وضجيج من الوساوس لا تهدأ، حتى جاءت لها فكرة يمكنها أن تقضي بها على تلك المشاكسة أبد الآبدين.

تدخل الربة (هيرا) على (زيوس) في مخدعهِ وهي تتمايل كالغزال في البرية، وتتغنج مع كل خطوةٍ تخطوها وكأنها تتسلح بأنوثتها ضد هذا الشهواني لتتمكن من أن تقنعه بما تريد، تقترب منه أكثر فأكثر وهو ينظر لها نظرة الثائر المتردد على التهام تلك الأنوثة أم ينتظر لتُلقي له ما تريد، فمعظم الرجال يُغلبون من قِبل المرأة بسبب أسلحة الآنوثة تلك.

اقتربت (هيرا) من (زيوس) بمسافة تجعل القارة القطبية تنصهر من لهيب أنفاسهما معًا، محاولة أن تستدرجه إلى ما تريد لتقول وهي تداعب لحيته بصوتٍ يحمل كل معاني التغنج:

ـ مولاي، أريد أن أخبرك بشيءٍ لا أستطيع أن أصمت عليه.

يجيبها وهو يحاول أن يتمالك أعصابه أمامها:

ـ ماذا حدث يا عزيزتي؟

ـ تلك المتعجرفة المغرورة ستسبب الحرب بين الآلهة بسبب الصراع عليها فيجب عليك أن تحسم هذا الأمر، إنها تحاول أن تسيطر على جبل أولومبوس وتستخدم جمالها سلاحًا لتستولي على كل شيء.

ـ مثلما تستخدمين أنوثتك وجمالك ضدي الآن.

لتتعالى ضحكة (هيرا) في أرجاء المكان مهتزة لها الجدران من جمال ضحكتها الصداحة ويهتز قلب (زيوس) معها، مغازلًا إياها بملامستها ونظراتها القادرة على إشعال حرارة الأنفاس لتجعل هذا الأسد الشرس هرة صغيرة يمكنها أن تفعل لها أي شيء، ولتبدأ في الإفصاح عن نواياها بطريقةٍ تجعل (زيوس) يوافق على ما تريد بدون تفكير قائلة:

- إن سمح لي مولاي زيوس أن أفصح عن حلٍ للقضاء على هذه المتعجرفة قبل أن تقضي على آلهة أولومبوس بجمالها هذا وتسيطر عليهم.
- وما هو يا عزيزتي؟

تبتعد (هيرا) عن (زيوس) متمايلة بخصرها كتمايل الريح بين السحب كأنها تسترد أفكارها من جديد ملتفتة له قائلة:

- أتعلم ما مشكلة تلك المغرورة؟ مشكلتها أنها معشوقة من الجميع، الجميع يحبونها، الجميع يتمنون فقط نظرة، ابتسامة، مداعبة، الكل يريدها ويحبها فماذا لو فعلنا العكس؟!
- تقصدين أن نجعل الجميع يكرهها؟! لكن كيف؟

تقترب (هيرا) منه ثانية أكثر من ذي قبل لتجيبه:

- ظننتك أكثر ذكاءً يا مولاي، أقصد أنها معشوقة فلمَ لا نجعلها عاشقة؟ لمَ لا نجعلها تشرب من كأسٍ لا

يمكنها الاستغناء عنه؟ لمَ لا نجعلها تفتح ذراعيها لأسهم كيوبيد الساحرة؟ لمَ لا تخضع ولا تكون مُخضعة؟!!

يفكر (زيوس) في تلك الكلمات الواقعة على مسمعيه متعجبًا من تلك الفكرة التي لم تخطر على باله من قبل، ليقول متفاخرًا:

- يا لها من فكرةٍ رائعة، حسنًا سأفعل هذا وأذيقها من هذا الكأس وأجعلها معشوقتي الجديدة، سأجعلها تُغرم باسمي كلما ترنم الجبل به.

تفزع (هيرا) من قول (زيوس)، فهي لم تكن ترتب لهذا، لم تقصد ذلك، هي تريده أن يبتعد عنها وتبعدها عنه، وهو الآن يخبرها أنه سيجعلها عشيقته، ما هذه الحماقة؟! تحاول أن تصحح ما أخطأ هو بفهمه مسرعة لتقول وهي متلعثمة:

- لا لا لا يا مولاي، أنت زيوس كبير الآلهة، ستجعلها هكذا أكثر غرورًا بأن كبير الآلهة زيوس العظيم قد جعلها معشوقته، يجب أن تعشق بشريًا، يجب أن تخضع لبشري كي تصبح ذليلةً لمن هو أقل منها.

يتعجب (زيوس) من مكر هذه الفكرة، كيف لهذه الفكرة الخبيثة أن تخطر على بال زوجته، وكيف له أن يختار هذا البشري؟ من هو سعيد الحظ الذي سيحظى بقلب أجمل جميلات جبل

أولومبوس، يصمت (زيوس) قليلًا ليُفكر ويفكر ويفكر حتى خرج من صمته ليقول مبتسمًا:

- فكرة رائعة، رائعة جدًا، سننفذ فكرتك يا عزيزتي، لكن سأضيف عليها بعض التفاصيل الخاصة بي.
- وما هي تلك التفاصيل؟
- ستعلمين كل شيءٍ في وقته يا عزيزتي، ستعلمين كل شيء!

***

الإسقاط النجمي، اللغز الذي شك الجميع في مصداقية تكذيبه أو تصديقه، اللغز والبوابة التي تنقلك لعوالم الكون المختلفة والتي لا يعلم مفتاحها إلا من بحث واكتشف تلك البوابات المليئة بالأسرار الخفية، فيمكنك أن تنتقل للماضي، للمستقبل، لواقعك الحاضر، والتنقل في أي مكانٍ تريده بواسطة تلك البوابات الأثيرية، أنت تملك العالم بأسره وأنت لا تعلم ما هي قدراتك الخفية، تلك القدرة التي أعطاك إياها الله وأنت لا تستخدمها ومهملها إهمالًا تامًا، تلك القدرة التي يمكنها أن تجعلك في كل بلدان العالم دون تأشيرة أو حُجوزات لخطوط الطيران، فالإسقاط النجمي لا يعرفه الكثيرون ولا يفقهون فيه شيئًا، لكن إن علموا سيكون الكون مليئًا بالأبطال الخارقين، ليس في عالمنا الواقعي هذا بل في العالم الأثيري، هذا العالم المليء بالأسرار والبوابات والأرواح الأثيرية والأجسام الغريبة والمخلوقات المُخيفة، فإن كنت تمتلك الجرأة فعليك زيارة هذا العالم في يومٍ ما.

في غرفةٍ ما من شقةٍ في منطقة الهرم تجد (حمزة) مستلقيًا على ظهره مغلقًا عينيه في ثباتٍ تام، ممددًا كالموتى لا تعلم أهو نائم أم انتقلت روحه إلى الرفيق الأعلى؟ في الواقع لا نعلم ما هي تلك الحالة التي هو فيها الآن، لكن هناك لغزٌ كبير وراء هذا الثبات المخيف، حتى ملامحه تخيف من ينظر له، فتارة يبتسم ابتسامة يشوبها الرعب، وتارة ترى وجهه عبوسًا واجمًا منبعثًا منه أحيانًا ملامح الخوف، وأحيانًا ملامح الشر البادرة من وجهه البارد المخيف، فلا نعلم بأي مستقرٍ هو أو بأي أرضٍ يجول، لا ننسى أيضًا أنه شخصية استغلالية لأبعد مدى، لا يعلم أحد كيف يبتز ضحاياه، فهناك سرٌ كبير وراء تلك الأموال مجهولة المصدر التي يكتسبها كل فترة، فلا أحد يعلم ما هي ماهية عمله أو مصدر دخله، بل لا يريد أن يعرف أحد عنه شيئًا فالجميع يتجنبون التعامل معه.

يقوم (حمزة) من هذا الثبوت المريب بطريقةٍ مرعبة كأنه دراكولا، يقوم من تابوته المخيف وعلى وجههِ ابتسامة شرٍ مخيفة كأن هناك أمرًا ما رآه، هناك خطبٌ ما في هذا الرجل، لا يعلمه أحد ولا يريد أن يعلمه أحد، فالجميع يخافون التعامل مع شخصٍ غامض كهذا، ليقوم من على فراشه متجهًا إلى دورة المياه ليستحم، وبعد أن انتهى خرج ليرتدي أفضل بذلةٍ يملكها مهندمًا ملابسه كأنه ذاهب ليطلب يد إحداهن للزواج، لكن لا أظن ذلك، فنوعية هذا الرجل لا أظنها تهوى الحب أو الاستقرار.

يركب (حمزة) سيارته متجهًا إلى إحدى المطاعم الموجودة على النيل وعلى وجههِ ابتسامة باردة لا يعلم سببها أحد، لكن نأمل أن نعرف سر تلك الابتسامة المريبة، فهو يملك ثقةً لا حد لها، يمكنك أن تصدقه حتى وإن كان يكذب من ثقته تلك المطبوعة في حديثه!

يصل (حمزة) إلى مطعم يُسمى «خلخال» ليركن سيارته أمام المطعم دالفًا له ناظرًا يمينًا ويسارًا حتى وجد رجلًا جالسًا وحيدًا على طاولته وعلى هيئته الوقار والغنى، يقترب (حمزة) من هذا الرجل حتى جلس أمامه مبتسمًا ابتسامة غريبة جعلت هذا الرجل الوقور الجالس على طاولته يتفاجأ به وهو يجلس إليه دون أي استئذان! ليقول الرجل بطريقةٍ عفوية يشوبها التوتر:

ـ من أنت وكيف تجلس على طاولتي دون أي استئذان؟

يجيبه (حمزة) بثباتٍ انفعالي شديد، هذا الثبات الذي يمكنه أن يرعب أي أحد.

ـ من أنا؟ هذا لا يهم الآن، أما لماذا جلست هنا فهذا هو المهم.

ليتعجب الرجل الوقور من هذا الشخص، كيف له أن يتحدث بتلك الطريقة الوقحة؟! ليرد عليه الرجل قائلًا:

ـ أنا لست في مزاجٍ جيد اليوم أيها المعتوه فقم من على طاولتي واغرب عن وجهي.

ـ لماذا كل هذا التوتر؟ أتنتظر شخصًا غيري؟!

ـ كف عن تلك التفاهات واغرب عن وجهي وإلا طلبت لك الشرطة، أنت لا تعلم مع من تتحدث.

ليسند (حمزة) ذراعيه على الطاولة ناظرًا لهذا الرجل بعمقٍ شديد قائلًا:

ـ مع من أتحدث مثلًا؟ أأتحدث للسيد نور الدين البلبيسي رجل الأعمال المعروف؟! نعم صحيح أنا أتحدث إليه الآن، ما هي المشكلة إذًا؟

ـ ستكون هناك مشكلة بالفعل إن لم تدعني الآن، فأنا أنتظر من هم أهم من تفاهتك تلك، ارحل على الفور أيها الصغير قبل أن أتسبب في حبسك.

لتتعالى ضحكة (حمزة) مقهقهًا بنبراتٍ متقطعة ليقول:

ـ دعني أخمن، أتنتظر السيد ماجد مهرب الآثار المعروف؟! هل تخميني صحيح يا سيدي؟

لتبدأ علامات التوتر تظهر على وجه السيد (نور الدين) متجاهلًا عما يتحدث هذا الشخص:

ـ من؟! أنا... أنا لا أنتظر أحد بـ...

فيرتفع صوته للملأ صارخًا:

ـ المدير، أين مدير هذا المكان؟

ليلحقه (حمزة) قبل أن يرتفع صوته أكثر من ذلك مهددًا:

ـ لا تُسبب لنفسك الأذى أيها الاحمق، إن لم تسمع ما سأقوله سأذهب إلى النائب العام لأبلغه تحيات تلك التماثيل الفرعونية الموجودة في خزنة منزلك.

يصمت الرجل مصدومًا بما سمع، كيف علم هذا الغريب بأمر تلك الآثار؟! وكيف علم بهذا الموعد الذي بينه وبين (ماجد)؟ هناك أمرٌ محيرٌ لكل هذه الأفعال الصادرة من هذا الغريب، لنجد أن التوتر قد ظهر بشكلٍ ملحوظ على السيد (نور الدين)، ونجد أيضًا أن العرق قد تكاثرَ على وجههِ وكأن السماء قد أمطرت عليه هو فقط، مقتربًا منهما رجل يبدو عليه أنه يعمل في هذا المطعم ليدخل عليهما محدثًا:

ـ أي خدمة يا سيدي، هل هناك مشكلة ما؟!

ليصمت السيد (نور الدين) ولا يعلم ماذا يقول أو يفعل وكأن القطة قد التهمت لسانه، فيتدخل (حمزة) مجيبًا على هذا العامل:

ـ لا يوجد أية مشكلة، نحن فقط كنا جائعين، وكان صديقي يمزح ويريد أن يأخذ مدير المكان طلباته لأن عمال هذا المكان لا يهتمون بالزبائن، أليس كذلك يا صديقي؟!

ظل السيد (نور الدين) صامتًا ولم ينبث ببنت شفه، حتى كرر (حمزة) الكلام مرة أخرى لينتبه السيد (نور الدين) مجيبًا بتعلثمٍ ملحوظ:

ـ ها!! نعم.. نعم كنت أمزح.. نعم كنت أمزح.

ليرد عليه هذا العامل بامتنانٍ شديد:

ـ لحظة واحدة وسأحضر لسيادتك من يأخذ طلباتك، وأعتذر اعتذارًا شديدًا على هذا التأخير.

فينصرف العامل ليُخبر أحدًا ما بأن يأخذ طلبات الزبائن، ليهمَّ السيد (نور الدين) بالحديث قائلًا:

ـ من أنت؟! وماذا تريد؟ وكيف علمت كل تلك المعلومات؟!

ـ لا يهم، كل تلك الأسئلة لن تفيدك في شيء، سؤال واحد فقط ذو أهمية، ماذا أريد؟ أريد خمسة ملايين جنيهًا.

ليقاطعه السيد (نور الدين) صائحًا:

ـ كاااااام! أجننت؟ نعم بالتأكيد أنت مجنون، أنت لا تعلم مع من تلعب يا هذا!

ليرد عليه (حمزة) بثباتٍ انفعالي وبرودٍ مريب:

ـ قلت لك إنني أعلم عنك كل شيء، وأعلم أيضًا أن هذا المبلغ لا يمثل لك شيئًا في حصيلة ثروتك الكبيرة،

أو بمعنى أصح في حصيلة تلك الصفقة الرابحة، ها.. ماذا قلت أنعقد صفقتنا أم أخبر النائب العام بتحيات تلك الآثار؟!

- لكن هذا ابتزاز!
- وأنا لا أظن أنك تقوم بعمل وطني مثلًا!
- ستندم على فعلتك تلك.
- لا تحاول أن تُهددني لأنني لا أخشى تلك التهديدات الطائشة، ماذا قلت في صفقتي؟! صمتي أمام هذا المبلغ الصغير أم حديثي مع الشرطة بتهمة تهريب الآثار؟!

ليصمت السيد (نور الدين) مفكرًا في هذا العرض، فإنه لم يكن يتوقع أن يبتزه أي شخص من قبل، فقد تضاربت الأفكار في رأسه كالمجنون، فتارة يفكر أن هذا الشخص قد أرسله (ماجد) ليكسب من وراءه المال، لكن كيف لماجد أن يكسب من وراء تلك الصفقة خمسة ملايين جنيهًا فقط؟!! فهذا المبلغ لا يمثل شيئًا لهذا المهرب الكبير، وتارة أخرى يفكر أن هذا الشخص يعمل في الشرطة ويحاول أن يوقعه بأية طريقة، لكن كيف لضابط أن تكون له التعليمات في أخذ هذه الخطوة الساذجة، فمن هذا؟! نفرٌ من الجن مثلًا؟!!

وهذه أيضًا استبعدها، فقد تحدث إلى هذا العامل فبالتأكيد هو إنسان مثله، ليس هناك تفسير لهذا الشخص غريب الأطوار، ليخرج السيد (نور الدين) من صمته محدثًا هذا الشخص بطريقةٍ تحمل شيئًا من العصبية الممزوجة بالتوتر:

- وما هي الضمانات التي أضمن بها سكوتك هذا؟لا يوجد ضمانات للأسف، ها ماذا قلت يا نور؟ينظر له السيد (نور الدين) نظرة تحمل شكًا كبيرًا لهذا الشخص المريب مخرجًا دفتر شيكاته ليكتب له المبلغ المراد قائلًا:
- حسنًا، هذا شيك بخمسة ملايين جنيهًا، يُصرف لحامله، وأتمنى أن لا أرى وجهك مرةً أخرى.

ليأخذ (حمزة) الشيك المكتوب وتلك الابتسامة الباردة على وجهه قائلًا:

- شكرًا لحسن تعاونك يا سيد نور، أتمنى ألا تفعل ما سوف تندم عليه، فكل حديثنا هذا مُسجل بالصوت والصورة، ومنقول لأحد أصدقائي حتى لا تفكر مجرد التفكير في أن تستخدم رجالك عليّ، فأنا أعلم تمام العلم أنك قادر باتصال واحد أن تقضي عليّ، وهذا التسجيل هو السبيل الوحيد لتأمين حياتي منك، ألقاك في الآخرة، وداعًا.

فيقوم (حمزة) من على هذه الطاولة متسع الابتسامة من نجاحه في تحقيق تلك الغنيمة الكبيرة في هذا اليوم المميز، فمثل هذه الضحية لا يلقاها كل يوم!

وخرج من المطعم وذهب للبنك لصرف الشيك سريعًا حتى لا يتربص له أحدٌ من رجال هذا الرجل المعروف، صارفًا الشيك وحاملًا كل تلك الأموال واضعًا إياها في سيارته ليركب، وقبل أن يذهب أمسك بهاتفه متصلًا بالشرطةِ قائلًا:

- ألو.. بوليس النجدة، كنت أريد أن أبلغ عن رجل الأعمال المشهور نور الدين البلبيسي في قضية تهريب آثار، نعم يا سيدي، والآثار موجودة في خزنة منزله وهو الآن يجلس مع السيد ماجد عاشور المهرب الكبير يتفق على الصفقة، من أنا؟ لا يهم.. هذا السؤال لا يهم!

ليغلق (حمزة) الهاتف ويُلقي به من نافذة السيارة وعلى وجهه تلك الابتسامة المرعبة، فهذا الشخص الماكر لا يمكن الوثوق به ولا حتى الاستناد على صحة كلامه، فالعالم الآخر الذي يعيش فيه ويعلم من خلاله كل تلك الأسرار المختبئة بداخل كل إنسان قد علَّمه قسوة القلب والجحود، وأن مصلحته فوق أي شيء، حتى وإن كانت بطرقٍ غير مشروعة، فهذا العالم الأثيري يمكنه أن يُخرج منك شخصًا انتهازيًا أو يُخرج منك شخصًا مسالمًا مُحبًا للجميع!

***

«يا الله..

جرَّبناكَ جرَّبناكَ..

من أعطاكَ هذا اللُّغز؟

من سَمَّاكَ؟

من أعلاكَ فوقَ جراحنا ليراكَ؟

فاظهرْ مثل عنقاء الرماد من الدمارِ»

أفتتح خطابي هذا بكلماتٍ من قصيدة مديح الظل العالي للشاعر محمود درويش، أنا حقًا لا أعلم إن كان هذا الشاعر يقصد التطاول عليكَ يا الله أم أنه يحاول أن يفيض بما داخله مثلما أفيض أنا، أنا لا أقصد الإهانة، أنت تعلم.. تعلم ذلكَ بالتأكيد، لكنني منكسر يا الله، وأنت قلت للنبي موسى أنا عند المنكسرةِ قلوبهم يا موسى، فلماذا لم تزرني حتى الآن؟!

أنا انتظرتكَ كثيرًا يا الله..

انتظرتكَ أكثر من انتظاري للموت..

لم أعد أحتمل وجود أي شخصٍ في حياتي، حتى نفسي لم أعد أحتملها، لم أعد أريد من الحياة سوى الموت، هل حقًا هناكَ فرجٌ قريب؟ هل حقًا ستزول كل تلكَ الشدائد والصعاب؟! هل ستستجيب لي أنا؟! أنا هذا الطفل المتضرع إليكَ تتذكره أليس كذلكَ؟!

هذا الطفل الذي دعا بزيادة مرتب والده ليحضر إليه تلك اللعب التي يريدها، واستجبت ولكنه لم يأتِ لي بتلك اللعبة..

هذا الطفل الذي كان يصعد كل يومٍ في الصباح الباكر لسطح هذا المنزل لكي يراك، لأن والدته أخبرته أنك تسكن السماء، لكنه كان يصعد ولا يراك، لكنه كان يراك بقلبه، كنت أراك بقلبي يا الله..

أُحدثك الآن والجميع نيام..

أُحدثك الآن والقلب يعتصر ألمًا وحزنًا..

أُحدثك الآن والعين تشفق على حالي وصبري هذا دون فائدة..

فيا الله..

جرَّبناك جرَّبناك..

من أعطاك هذا اللُّغز؟

من سَمَّاك؟

من أعلاك فوق جراحنا ليراك؟

فاظهرْ مثل عنقاء الرماد من الدمارِ.

«أحد خلقك»

يغلق (عابر) هذه الأجندة فقد خشيَ أن تضيع تلك الرسائل في زحمة الأوراق، فنقل كل رسالة كتبها في أجندةٍ صغيرة يحملها أينما ذهب، كل رسالةٍ ينتهي منها يبكي بكاءً شديدًا، ينتظر العون، ينتظر المدد، ينتظر المعونة من الله ليسانده على كل تلك الصعاب، فقد تهالكت روحه وتمزق فؤاده من تلك الحياة.

يفكر (عابر) في عرض العمل الذي عُرض عليه من قِبل صديقه بجدية، فقد انعزل عن الصحافةِ سنواتٍ كثيرة، وقد تغير كل شيءٍ بعد الثورة، أصبحت الحريات متاحة وتم القضاء على أمن الدولة، فلماذا يخشى العودة لمزاولة تلك المهنة؟! هل لأن حبيبته السابقة (حور) تزاول تلك المهنة أيضًا؟ أيخشى اللقاء؟! أيخشى أن يحتضن بعينيه شيئًا لم يعد ملكه الآن؟ لكنه استجمع زمام عزمه، وأمسك هاتفه ليتصل بصديقه (فهمي) محدثًا إياه عن عرض العمل الذي عرضه عليه ليبدأ الحديث كالآتي:

- ألو، فهمي.. كيف حالك يا صديقي؟
- عابر، أنا بخير، أعتذر بشدةٍ عن عدم اتصالي بك كل تلك الفترة، فأنت تعلم ترتيبات الزواج تأخذ وقتًا طويلًا، ولكن أقسم لك أنني كنت سأتصل بك اليوم، أخبرني كيف حالك أنت؟

يتعجب (عابر) من قول صديقه، فكيف يقول هذا وهو كان يجلس معه أول أمس؟! يتفادى (عابر) تلك النقطة، فربما كان

(فهمي) مستيقظًا من النوم ولا يعلم ماذا يقول، يجيبه (عابر) والتعجب ما زال في صوته:

ـ أنا بخير لا تقلق، كنت أتصل فقط لأشكرك مرة أخرى على الكتاب، وأخبرك أنني موافق على عرض العمل الذي قدمته لي.

ليجيبه (فهمي) بتعجبٍ شديد قائلًا:

ـ كتاب! أي كتاب؟! وكيف توافق على وظيفةٍ لم أحدثك عنها حتى الآن؟! ماذا تقول أنا لا أفهم شيئًا؟!

ـ يندهش (عابر) من واقع ما سمع، ماذا يقول هذا؟! لقد قابله أول أمس وجلس معه على المقهى، فلماذا يقول هذا؟! يندفع (عابر) قائلًا بصيغةٍ استفهامية:

ـ يا فهمي ركز معي، ألم نتقابل أول أمس وأعطيتني كتاب Astral dynamics ونحن على المقهى؟!

يجيبه (فهمي) بنفس الاندهاش ناكرًا كل تلك الأحداث قائلًا:

ـ ماذا؟ ما هذا الكتاب؟! نعم تذكرت، أليس هذا الكتاب الذي حدثتني عنه منذ فترة؟ لكنني أقسم لك أنني لم أرَك أول أمس، آخر مرة تقابلنا كانت منذ حوالي شهر.

تتحول الدهشة إلى صدمة فكيف هذا؟! كيف يمكن أن يحدث هذا؟! هل كان بصحبة شبح أو عفريت مثلًا؟! لا يعلم ماذا يقول (عابر) أو يفعل، إنه مشتت تشتتًا كبيرًا، ليخرج من صمته قائلًا:

ـ فهمي قابلني اليوم في وسط البلد يجب أن نتحدث.

يغلق (عابر) الخط وهو على حيرةٍ من أمره، ما الذي يحدث الآن؟! ومن الذي أهداه هذا الكتاب إن لم يكن (فهمي)؟! هناك لغزٌ محير في هذا الأمر، هل أصابه مس، أم أن الوحدة جعلت عقله يرسم أشخاصًا؟! لا لا فالكتاب أمامه الآن ويمسكه بيده ضاغطًا عليه بقوةٍ ليتأكد، أصبح يحدث نفسه قائلًا:

ـ لا لا.. لا بُدَّ أنني أتوهم هذا الكتاب، نعم بالتأكيد، لكن.. لكن كيف؟!

هل جننت؟!

يقوم من مكانه مسرعًا إلى أمه حاملًا الكتاب ليقف أمامها قائلًا بتوترٍ مصاحبًا برهبةٍ شديدة وخوف:

ـ أمي أليس هذا الكتاب حقيقيًا؟

تتعجب والدته من حديثه وتقول:

ـ نعم يا بني حقيقي!

ليتركها ذاهبًا لغرفته مجددًا وعلامات الصدمة على وجهه لا يستطيع التفكير في أي شيء، شُل تفكيره نهائيًا، يحاول أن يتذكر الأحداث، ربما لم يكن (فهمي)، ربما كان شخصًا آخر، يحاول أن يعتصر ذاكرته لكن كل الطرق والذكريات تقول أن (فهمي) من أعطاه هذا الكتاب، لكن كيف؟! هو ينفي المقابلة من الأساس فكيف أهداه له؟ هناك أمر مريبٌ يجب أن نعرفه جميعًا.

***

- كيف لم تقابلني أول أمس يا فهمي؟! كيف وهذا الكتاب أمامك وأنت أعطتني إياه في نفس هذا المكان؟!

تخرج تلك الجملة من فم (عابر) بزمجرةٍ وعصبية شديدة لصديقه (فهمي) وهو يحاول أن يفسر له أنه بالفعل أعطاه الكتاب وذهب، وأنه قد تكلم معه في تفاصيل الزواج أيضًا، فكيف يقول الآن أن هذا لم يحدث؟! هناك حلقة مفقودة لا يستطيع أحد أن يصل إليها، لكن لا شك أننا سنعلمها، يرد (فهمي) عليه بتوترٍ شديد:

- يا عابر صدقني أنا لم أعطِكَ شيئًا ولم أرَك منذ شهر، لمَ لا تصدقني؟
- أنا لم أكذبك يا فهمي لكن من أعطاني هذا إذًا؟!

ـ لست أنا بالتأكيد، أنا حتى لا أقدر على نطقه فكيف لي أن أحضره لك؟!

يصمت (عابر) ولا يعلم ماذا يفعل أو يقول؟ فقد استنفد كل طاقة تفكيره في البحث عن حقيقة هذا الموقف ـ مفكرًا ـ، هل كان شيطانًا قد أعطاه له ثم رحل، أم ملاكًا من السماء أعطاه له ثم عرج للسماء ملبيًا نداء الرب؟!

هو لا يعلم، حقًا لا يعلم، وقد استسلم تفكيره في حل هذا اللغز المحير، فيخرج عن صمته قائلًا بهدوءٍ شديد:

ـ لا يهم، فهناك خوارق في هذا الكون الغريب، ويبدو أنني صادفت إحدى تلك الخوارق.

فلا يعلم ما يقوله (فهمي) لصديقه، أيواسيه أم يحاول أن يهدئ من روعه المضطرب؟ فبالتأكيد هو لا يشعر بأي اطمئنان تجاه هذا الحدث، فهناك ما هو قادم بالتأكيد فلن يستقر الحال على ذلك.

يحاول (فهمي) أن يغير الموضوع ليمتص توتر صديقه محدثًا إياه عن مواقف قد حدثت معه مُؤخرًا في العمل ومع خطيبته (سارة) ليندمج معه (عابر) في الحديث محاولًا أن ينسى ما حدث ليقاطعه قائلًا:

ـ هل هناك فرصة للعمل لي يا فهمي؟

ـ نعم صحيح كدت أن أنسى، فالجريدة التي أعمل بها تريد صحفيين في المجال الثقافي، وأظن أنك أهل لذلك.

ـ حسنًا، متى يمكنني مزاولة العمل؟

ـ امممم، سأخبر رئيس التحرير وأقول لك على الفور.

ـ أشكرك جدًّا يا صديقي.

ويردف ممازحًا:

ـ سأذهب أنا حتى أستريح من تلك الخوازيق، أقصد الخوارق.

فقهقه (فهمي) بصوتٍ مرتفع ليجيبه:

ـ حسنًا، سأخبر رئيس التحرير وأجيبك، لا أصدق أخيرًا أنك ستزاول المهنة مرة أخرى.

ـ لا أصدق، لأنني أريد أن أغير هذا الروتين وهذا الملل، مع السلامة يا صديقي.

ليذهب (عابر) متجهًا إلى بيته بسيارته، فحالته المادية ميسورة جدًّا لكنه لا يقدر على الزواج، لا لا ليس هناك خللٌ في جيناته أو يشتكي من ضعفٍ جنسي، بل يشتكي من ضعف قلبه، وتدفق مشاعره، وحنين ذكرياته لها، فهي من أَسرته في قلبها، هي من استباحت حرمة قلبه وانتهكت مشاعره، هي من أرسلها الله له لتتمم ضلوعه الناقصة بعناقٍ لم يدُم، هي! هي ومن هي؟ هي

من تخلت عنه أيضًا في وقت ضيقه، كان يحتاج إليها كاحتياج الطفل لأمه، كاحتياج النهار للشمس، كاحتياج الليل لنمشٍ من النجوم، كاحتياج الحزن للدموع، لكن برغم كل هذا التخلي ما زال يعشقها، متيمًا بها، لم يحبها قط لأن تلك الجملة قليلة جدًّا على ما بداخله.

يفتح (عابر) باب شقته أو بالأحرى باب سجنه، فهناك أوقات لا يكون السجن سجنًا مقيدًا بحرية الجسد ـ لا ـ لأن هذا البيت سجنٌ للأحلام، سجنٌ للابتسامة، سجنٌ للأفكار، سجنٌ لكل شيء، حتى الهواء الذي يتنفسه في هذا البيت مسجون بأفكار والده، فوالده بالنسبة له يمثل بعبعًا في هذا البيت.

يدخل غرفته بعدما سمع فتاتًا من توبيخات والده مستمتعًا بعالمه الخاص، فقد دفن نفسه بداخل الكتب والعزف والكتابة عما يشعر به، فقد جعل بداخل سجنه جزءًا من الحرية وهي غرفته، جزءًا من راحة البال، جزءًا من عدم الأوامر والالتزامات، فقد هيأ لعقله الحرية التامة من هذه القيود البدائية المدنسة بالجهل وعدم المعرفة.

يفتح (عابر) الكتاب الذي جاء إليه من السماء ليكتشف عالمًا جديدًا لم يشهده من قبل، عالم سيغير له مسار حياته وميوله واتجاهاته، عالم يغزوه الخيال الواقعي، كل شيء في هذا العالم حقيقي، لا يوجد أية هلاوس أو أي خيالات فيما سترى فيه، فكل شيء حقيقي إلى حد عدم التصديق، لن يستقبل عقلك الصغير ما

ستراه في هذا العالم الأثيري، عالم الأطياف، ستكون في هذا العالم الأثيري الغير مرئي لعالمنا الواقع، فيمكنك أن تتجول بطيفك أو جسدك الأثيري في عالم الواقع دون أن يراك أحد، دون أن يشعر بك أحدهم، يمكنك أن تحلق مع النجوم وتراقص السُحب وتغازل الكواكب وتطفئ عين الشمس وحدك، أنت وحدك يمكنك أن تملك هذا العالم بأسره، يمكنك أن تسافر بجسدك الأثيري إلى أي بلد وأية دولة تريدها دون تأشيرة أو باسبور أو أية هوية تثبت من أنت، لأنك في هذا العالم أنت الهوية ذاتها، فهذا الكتاب الذي يمتلكه (عابر) الآن هو بمثابة كنز كبير للبعض، وللبعض الآخر لا يمثل لهم شيئًا، لكن (عابر) يعلم مدى قوة هذا الكنز ويتمنى أن يصل لتلك المرحلة، مرحلة الطيف الأثيري ويحلق بجسده إلى عنان السماء.

***

«غراء فرعاء مصقول عوارضها".بالتأكيد هذا الشاعر كان يقصد تلك المرأة المستندة على كومة الزهور تلك في هذا البستان المُزهر بخطواتها الباهية، فكل بقعة تسير عليها في أي مكان تنبت الزهور والحشائش من تحت نعليها، فمن أبهى منها صورة وأجمل منها حُسنًا؟! فهي من يتصارع عليها آلهة جبل أولومبوس بلا استثناء، هي من أذهبت العقول بنظرةٍ يشوبها خمر أنفاسها العطرة، هي من ببسمتها تسر الناظرين العاشقين الطامعين المستبشرين بنظرةٍ منها

تطفئ لهم نار هذا العشق وتلهبه في آنٍ واحد، هي من تخضع لها الطبيعة ولجاملها، هي ومن هي؟ هي (أفروديت) ربة الجمال والحب والرغبة، فقد عجز الواصفون عن وصف جمالها، والشعراء في الإتيان بأبياتٍ في الشِعر توفي طلتها، فقدِّها المياس يُلهب الناظرين، ونهداها النافران كالفاكهة المحرمة، وعيناها تشعان منهما الرغبة الجامحة متلونتين كل ثانية بألوان الطبيعة الخلابة، فتنظر لها تارة تجد عينيها بلون السماء، وتارة أخرى ياقوتية، وتارة بلون الحدائق، وأجمل تارة عندما تجدهما كالكون، تجد فيهما النجوم تتلألأ، والقمر يسطع، والشمس تنكسف بظلال رموشها، حقًّا لا أستطيع أن أصف عينيها حتى، فكيف سأصف لكم الموصوف ذاته؟! فحتى أنا أغرمت بها وبحُسنها، إنها فتنة، فمن يسمع اسمها فقط يُفتن بها، سأترك لك زمام الخيال لتتخيل (أفروديت) ربة الجمال والحب والرغبة، سأترك لك حرية الاختيار في أن تعشق تلك المرأة أو تُغرم بها لأنك لن تجد مفرًا منها، سأتركك الآن مع مُخيلاتك تلك لأتمعن أنا بالعشق فيها.

تستند (أفروديت) على كومةٍ من الورود مُتأملة تلك اللوحة السماوية فوقها، فالشمس حان وقت رحيلها، والقمر جاء وقت استلامه للعمل، والسحاب يتأمل هذا المشهد كل يوم هو و(أفروديت)، فإنها تعشق الطبيعة كما يعشقها كل من على الأرض، يقترب منها (إروس) إله الحب من مخدعها جالسًا بجوارها،

ويُعتبر (إروس) من حاشية (أفروديت) التي تتبعها في كل مكان، لكن تتركها بحريتها في نفس الوقت؛ فـ (أفروديت) كالفراشات لا تستطيع أن تُقيد بزهرةٍ واحدة أو بأي شيء، تُفضل أن تُحلق على كل الزهور وفي كل مكان، يجد (إروس) الحيرة والحزن في عيني (أفروديت) ولا يعلم ما سبب كل تلك الحيرة المخلوطة بالحزن الداخلي، ليسألها مستفسرًا عن سبب تلك الحالة قائلًا:

ـ أرى الحزن في عينيكِ مُستقرًا ولا يجد من يهديه إلى السرور.

تنظر له (أفروديت) وعلى وجهها شبح ابتسامةٍ لتجيبه والحزن يملأ صوتها:

ـ لن يهديه أحد، فأنا من يهدي إلى السرور ولا أُهتدى.

ينظر لها (إروس) والحيرة تملأ عينيه ولا يجد كلمات تسعفه للقضاء على نبرة الحزن تلك، فلم يجد ما يجيب به ليأخذ من الصمت محرابًا له؛ لعله يمده بالكلمات المصونة ليمدها لها حتى تُطيب هذا الحزن المنبث منها، تكمل (أفروديت) عندما وجدت صمت (إروس) قد طال:

ـ أتعلم يا إروس ما الذي يُحزنني؟ما هو؟!

تعيد (أفروديت) النظر إلى السماء مكملة وعلى وجهها ابتسامة سخرية من واقع هذا الأمر:

- ما يحزنني أن قلبي لم يجد من الحب طريقًا يسلكه، لم يجد من يأخذه إلى ساحات الحب والعشق والولع والجنون، أنا فقط من يأخذ القلوب إلى تلك الساحات، أريد أن أعشق لا أن أكون معشوقة فقط، أريد من يسلب قلبي وعقلي ووجداني بنظرةٍ واحدة، أريده مختلفًا ليس إلهًا أو بشريًا، أريده من العدم، أريد أن يظهر لي من الخفاء، من اللا شيء، ولكل شيء يأخذني ويسلبني من هذا الواقع المرير.

يتأمل (إروس) تلك الملامح التي لم تعرف طريقَ الحزن قط سوى الآن، لا يعلم حقًّا ماذا يقول لهذا الجمال البائس أمامه؟ لكنه يستمد بعض الكلمات من قلبه قائلًا:

- أتعلمين، أنا أيضًا مثلك، لا أجد من أعشقه أو يعشقني، ربما أنت أقل تعاسة مني، أنا إروس إله الحب، أنا من يوقع القلوب في العشق لا أجد لي عاشقة تشاركني معاناتي، لكن أتعلمين، إنني أشعر أن قلبك سيخفق بنبضات العشق قريبًا.
- أتواسيني أم تسخر مني؟!
- لا لا لا، أقسم لكِ لا هذا ولا هذا، أنا أقول لكِ ما أشعر به، فأنا أشعر أن الحب سيطرق أبواب قلبك المحصنة.

لتبتسم (أفروديت) رامقة (إروس) بنظرةٍ يملأها البهجة:

ـ أتمنى ذلك يا إروس، حقًّا أتمنى ذلك.

ـ لا تقلقي أيتها الجميلة، وأتمنى حقًّا أن يقع عليَّ اختيار عشقك.

لتتعالى ضحكات (أفروديت) كتعالي النجمات عن الأرض قائلة بشكلٍ ساخر:

ـ لا أظن ذلك يا إروس، فأنت لا تناسبني يا عزيزي، أولم أقل لك إنني لا أريده إلهًا من آلهة هذا الجبل، أنا فقط أريده إلهًا لقلبي وعقلي وخاطري، إلهًا لعيني فلا ترى أحدًا سواه.

يجيبها (إروس) بتنهيدةٍ يشفق بها على نفسه:

ـ قريبًا يا عزيزتي، قريبًا لا تقلقي.

بعد ثمانية أشهر من التدريب والتأمل توصل (عابر) أخيرًا إلى مرحلة الإسقاط النجمي، وهي كما قلنا سابقًا رحلة الخروج من الجسد والتجول بجسدك الأثيري أينما شئت، وهذا الجسد الأثيري يتصل بالجسد المادي بشيءٍ يُسمى الحبل الأثيري، وهذا الحبل قادر على أن يعيد الجسد الأثيري إلى الجسد المادي مرة أخرى، وإن انقطع هذا الحبل الأثيري سيقع بأضرار فادحة لا يمكن أن نتخيلها، فيمكن للمسقط أن يدخل في غيبوبةٍ دائمة أو أن تصيبه

سكتة قلبية ويموت على الفور، فبرغم متعة الإسقاط النجمي إلا أن خطره أكبر من متعته بكثير.

وجد (عابر) طريقًا آخر يهرب به من هذا السجن الذي يحيا فيه، لا بل عالمًا أشبه بالخيال، فإنه يتجول بجسده الأثيري أينما شاء، فقد اتجهت كل السُبل في أن يحيا بعالمه الخاص من الكتب والعزف والكتابة، واكتملت أخيرًا تلك السُبل بالإسقاط النجمي، هذا العالم الذي جاء إليه من حيث لا يدري، فهو الآن في زيارةٍ إلى ذلك العالم الأثيري لنجده متمددًا على فراشهِ في ثبوتٍ تام كثبوت الموتى، ففي بعض الأحيان نجده يتصبب عرقًا وفي الحين الآخر يرتعش جسده كمن أصابه مس كهربائي، فإن جلسنا بجواره فسترتعد من تصرفاته الغير معلومة، وكأنه يصارع الموت أو أشياء ما، فدعونا نذهب معه لهذا العالم لمعرفة ما كان يشعر به.

إنك الآن في مدينة من الظلام، لا ترى سوى الظلام فقط، لا تشعر بأي شيءٍ حيال كل شيء، تشعر فقط بلمسات الهواء البارد في هذا الظلام الكحيل، تسمع أصواتًا غريبة لا تعرف مصدرها ولا تعلم ماهيتها، لكن يمكنني أن أخمن أن تلك الأصوات هي أصوات إيقاعات الطبول المصاحبة لحسيس الليل المخيف، وهذه الأصوات المريبة ترتفع شيئًا فشيئًا حتى إنك لا تستطيع أن تتحمل ضغط ذلك الصوت عليك لتقع صريعًا في هذا الظلام من هذا الخوف الذي بداخلك نحو ذلك المجهول الذي لا تعلم

مصدره، أنت لا تعلم ما الذي عليك فعله، أو بماذا أنت تشعر، لا تعلم إن كنت سعيدًا، حزينًا، مطمئنًا، خائفًا، أنت تمتلك مزيجًا من الأحاسيس الغير مفهومة بتاتًا، أنت مُلقى على الأرض صريعًا لا تعلم ما هي الخطوة القادمة حتى يظهر لك مخرجًا نورانيا في هذا الظلام القاتم يجذبك إليه دون إرادتك، وكأن عقلك صور لك مخرجًا من هذا الظلام، تظل تلك الفجوة النورانية تجذبك نحوها لتدخلك في ممرٍ حلزوني لا تعلم ما هو آخر ذلك الممر، أنت تنجرف فيه ولا تعلم أيَ شيء، ولكن تشعر بكل شيء مشتتًا بداخلك، وفي هذا الممر تسمع أصواتًا لم تتناولها أذنك من قبل، وترى أشباح أشخاصٍ تظهر وتختفي كأنك في بيت الرعب، ثم تصل أخيرًا إلى نهاية هذا الممر لتجد نفسك تحلق بين ملايين الأشخاص مثلك في هذا العالم الغريب، وتجد أن جسدك قد تحول لونه إلى اللون الأزرق المائل للأبيض، وهذا هو لون جسدك الأثيري الذي تحلق به فوق جسدك المادي الآن، أنت لست بمفردك يا صديقي، فأنت تشارك رفاقك ورفاقك يشاركونك هذا العالم الفريد من نوعه، فهذا العالم ما هو إلا بوابة لعوالم أخرى كما قلنا، يمكنك من خلالها أن تذهب للماضي أو المستقبل أو تتجول في الحاضر كما يفعل صديقنا (عابر) الآن، فإنه يتجول في الحاضر وفي خاطره ذكريات الماضي، نعم فإنه كل ليلةٍ يذهب لمعشوقته (حور) ليراها وهي نائمة، هذا الملاك الجميل النائم لا يستطيع أن يشعر بخفقان قلب

عاشقٍ باع قلبه ليشتري بثمنه الاشتياق والحنين لكل لحظةٍ مرت، أحيانًا يتساءل (عابر) هل ما زالت تحبني؟ هل تفكر بي مثلما أفكر فيها؟ إنه يأمل أن تطلق من زوجها الحالي فهو على أمل أنها ما زالت تحبه.

ينظر (عابر) إلى (حور)، ولا يعلم ماذا يفعل؟ فإنه غير قادر على فعل أي شيءٍ لأنه مجرد طيفٍ الآن، لا يراه ولا يسمعه أحد، هو الوحيد القادر على مراقبة الكل دون أن يلاحظه أحد نهائيًا، هو فقط يتأملها ويتأمل كل تفاصيلها المحببة إليه، وينظر لزوجها ببغضٍ وكرهٍ شديدين، فقد أخذ منه ما كان يريد ويتمنى ويحلم به طوالَ سنين حياته، لا يطيق أن يجد حبيبته في أحضان رجلٍ آخر، فالسكين على رقبته أهون عليه من ذلك، لكنه تناسى هذا وظل يراقب حبيبته وهي نائمة كالطفلةِ الهادئة، وعلى وجههِ علامات الحزن الشديد متذكرًا كيف كانا في الماضي، متذكرًا عندما كان ذاهبًا لمقابلتها بعد محاضرته بالكلية، وكان الحزن يجول في وجهه بسبب حدثٍ ما قد حدث، لكنها كانت تنسيه كل شيءٍ وتحتضن تلك الأحزان بداخله بابتسامتها البديعة لتنظر له وتعلم أن هناك خطبًا ما حدث، وينظر لها ويتأملها لينسى ما حدث، لكن فضولها قد أجبرها على السؤال لتقول والعطف والتلهف كالخيول التي ترمح في الخلاء:

ـ ماذا بك؟!

لينظر لها (عابر) وكأن شيئًا لم يكن، يفعل هذه المواساة الغير ملحوظة والتلهف الملحوظ لينسى كل شيء حدث ويجيبها:

ـ ألا تعلمين؟!

لترتبك (حور) ظانة أنها السبب في وجوم وجه عشيقها ومعشوقها لتقول:

ـ أقسم لا أعلم، أخبرني ماذا بك؟

يجيبها وهو ناظرٌ لعينيها وعلى وجهه ابتسامة العاشقين فيقول:

ـ تسألينني ماذا بك ولا تعلمين أنكِ بي! ألا تعلمين هذا؟!

ـ ليزيدها هذا ارتباكًا فوق ارتباكها، وتجد الخجل قد احتواها بالكامل، ولا تعلم ماذا تقول أو تفعل أو إلى أي اتجاهٍ تنظر حتى؟! فالكلمات يمكنها أن تسعدنا، تحزننا، تصدمنا، تتعسنا، يمكنها أن تفعل أي شيءٍ فلا تستهينوا بقوة الكلمات.

يتذكر كل هذا ولا يمكنه أن ينسى منه كلمة، لقد امتلكته برغم كل تلك السنوات التي هجرته فيها، لقد تعلَّم الإسقاط النجمي من أجلها، من أجل أن يراها بدلًا من انتظاره تحت بيتها، ينتظر خروجها للشرفة، كما تعلَّم عزف العود من أجلها أيضًا، فقد كانت تعشق نغماته وصوته فتعلَّمه من أجل أن يسعدها، أما الكتب

والكتابة فهما الشيئان الوحيدان اللذان فعلهما حبًا لنفسه ليس حبًا لأحد، فهو لا يمتلك الآن مُحبًا غيرهما.

***

يعود (عابر) من هذا العالم إلى عالمه البائس المحفوف بالصراعات والكراهية، لا يعلم ماذا يفعل في هذا الوقت المتأخر، لا يستطيع أن ينام من كثرة التفكير وعواطفه الجياشة، فهو يشعر باضطرابات نفسية كبيرة بداخله ولا يستطيع أن يحارب تلك الاضطرابات، لا يستطيع أن يفعل أي شيء الآن إلا أنه أمسك قلمه وبدأ يكتب في كُتيب «رسائل إلى السماء» من جديد...

«إلى متى؟ حقًا إلى متى يا الله ستجعل مني أضحوكة في السماء ومسخًا على الأرض؟! لكل شيء قد سُلب مني حتى نفسي قد سُلبت مني ولا أعلم أين هي الآن؟ أنا تائه يا الله ولا أعلم أين ومتى وكيف الخلاص من هذا التيه؟ لقد كتبت عليَّ التيه كما كتبته على بني إسرائيل، لكنك لم ترسل لي المن والسلوى مثلهم، لم تطعمني بالراحة أو اللذة والسلام الداخلي.

يا الله أنا لست عدوًا لك، أنت تعلم ذلك بالتأكيد، فلماذا إذًا كل هذا العناء والمشقة؟ فكل ما أريده هو أن أنعم بحياةٍ شبه سعيدة حتى لا أتمنى سعادة كاملة، فهل رأيت يا الله كيف أنا

قنوع وأرضى بأي شيء؟! أنت تعرفني وتعلم ما بي أكثر من هؤلاء..

أتمنى فقط أن تنظر لي بعين الرحمة وتنتشلني من هذا الحزن..

يا الله لقد كفرت بكل شيءٍ إلاك..

مُلحدٌ أنا بكل ما أُنزل من شقاءٍ وضعفٍ وعناء، لكنني أؤمن بك، أؤمن أنك لن تضيعني وستجعل لي الخلاص قريبًا، شيء أخير يا الله، لقد سلبت مني كل شيء فرجاءً لا تسلب مني تلك الكلمات المبعوثة لك أيضًا، فهي الشيء الوحيد الذي أمتلكه الآن، فقد خسرت كل شيءٍ ولم يتبقَ لي سواهم، فلا تأخذ كلماتي تلك مني يا الله، حتى لا أصبح أكثر حزنًا من ذي قبل.

«أحد خلقك»

***

تتفنن في تزيين ذاتها لذاتها، فقد أيقنت أن الرجال لا يستحقون، وأن امرأة واحدة لا تكفي هذه القلوب الكبيرة التي يمتلكها الرجال، لكنها ما زالت تحب زوجها، ولا تعلم كيف تقضي على نزواته المستمرة التي لا تنتهي، هي تعلم أنه لن يستبدلها

بأي من تلك النزوات، لكن واحدة فقط يمكنها أن تستبعدها من حياة صدغها وهي (أفروديت)، يمكنها أن تخضع رجال الكون تحت إمرتها بجمالها الذي ليس له شبيه، إنها ساحرة، نعم ساحرة تسحر القلوب قبل العيون والأذهان إلى حد الجنون، إنها بستان من الحوريات واللؤلؤ والياقوت، لا تقدر (هيرا) على أن تنافسها في جمالها المصقول بنعيم الجنة، فجمال (أفروديت) كالجنة، ففيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت، ولكنها خطر على قلوب العاشقين المغرمين التائهين في مرمى نظراتها الخلابة، فلا أظن أن (هيرا) ستستطيع أن تنتصر على (أفروديت) بالجمال، لكن أظن أنها ستنتصر عليها بالمكر والخداع.

تنتظر (هيرا) عودة (زيوس) من إحدى نزواته ـ نعم ـ، فالمرأة تعلم وتشعر أن رجلها كان في أحضان امرأة أخرى، و(هيرا) تعلم أن (زيوس) كل يوم يعود لها ورائحة نزواته في ملابسه وعرقه، حتى أنها تشمها في عينيه، فالمرأة تمتلك أسلحة لا نعلم ماهيتها حتى الآن، ينتابها الحزن ولا تستطيع أن توقف تلك النزوات عند حدها خوفًا أن يغضب عليها (زيوس)، لتمر عليها (أثينا) وتجد في ملامحها الحزن الشديد جالسة بجوارها تقول:

ـ ماذا بكِ يا هيرا، ما الذي حدث؟

لتنتبه (هيرا) إلى هذا الصوت لتجد أن (أثينا) تجلس بجوارها، فتجيبها ونبرة الحزن متمسكة بصوتها كتمسك السحاب بالسماء:

- لا شيء يا أثينا لا شيء.
- تمازحينني بالتأكيد! كيف تقولين أنه لا شيء وكل هذا الحزن يجول في وجهك؟! ماذا حدث؟ أتشاجرتي أنتِ وزيوس من جديد؟

ترتسم على وجه (هيرا) ابتسامة سخرية قائلة:

- أنا لا أراه حتى نتشاجر يا عزيزتي، إنه غارق في نزواته وأنا غارقة في أحزاني المستكينة.

يبدو الأسى على وجه (أثينا)، لا تعلم ماذا تقول لها أو كيف تواسيها، فهي تعلم أن (زيوس) زير نساء ولا يمكنه أن يبتعد عن نزواته تلك، فهو يمتلك في كل بقعةٍ في الأرض معشوقة، ومن تعترض منهن يأخذها غصبًا عن إرادتها الهزيلة أمامه، فتحاول (أثينا) أن تخفف عن هذه الحزينة المنكسرة لتقول:

- لا عليكِ يا هيرا، فأنتِ تعلمين أنه يفضلكِ أنت ولا يفضل أحدًا سواكِ، أنت من تملكين عقله وقلبه ووجدانه.

لتتسع ابتسامة السخرية تلك على وجه (هيرا) قائلة:

- أملك ماذا! عقله وقلبه ووجدانه! أثينا أنا أقول لكِ أنني أراه بين الحين والآخر، وأنتِ تقولين أمتلك عقله وقلبه ووجدانه! إنكِ تمزحين، حقًا تمزحين.
- يا عزيزتي هؤلاء هم الرجال، لا يستطيعون التعبير عما بداخلهم، لكن العيون فضاحه، انظري إلى عينيه وستعلمين أنه يحبكِ أنتِ فقط.

تخرج تنهيدة من بين حنايا صدرها، ولا تعلم ماذا عليها أن تفعل إلا أنها تحزن فقط، والحزن الأكبر يظهر حينما تتذكر (أفروديت)، وبأنها يمكنها أن تسلب (زيوس) منها، لتكمل حديثها مع (أثينا) لتقص عليها خوفها الأكبر لتقول:

- ولكن أفروديت ترعبني يا أثينا، أخشى أن تسلبه مني، أنت تعلمين ما مدى جمالها وسحرها على الآلهة وعلى البشر أيضًا، إنها تسلب أي شيءٍ والكل يريدها، وأنتِ تعلمين أن الكل يعشقها.

لتصمت (أثينا) برهة مفكرة فيما ستقوله لهذه المسكينة لتهدئها فتقول:

- ألم يقل لكِ أنه سيجعلها عاشقة، وأن هناك بعض التفاصيل سيضيفها إلى خطتك تلك؟
- نعم قال ذلك، لكن أخشى أن تلك التفاصيل أن يجعلها معشوقته الجديدة.

- امممم، لكنه اقتنع بأنها يجب أن تعشق أقل شخصٍ على الأرض ليس هو، أليس كذلك؟!

لتجيبها (هيرا) والعصبية بدأت تظهر على صوتها ولا تعلم ماذا تفعل أو تجيب:

- لا أعلم يا أثينا، لا أعلم أي شيء.
- حسنًا حسنًا، اهدئي وكل شيءٍ سيكون بخير، لكن عندما يأتي زيوس حاولي بقدر المستطاع أن تعلمي ما هي التفاصيل التي سيضيفها إلى تلك الخطة التي وضعناها سويًا، حسنًا؟!
- حسنًا يا أثينا حسنًا.

لتسمع كلتاهما صوت (زيوس) يجول في أنحاء المكان معلنًا عن قدومه إلى قصره، فتتأهب (هيرا) لاستقبال زوجها لتعلن (أثينا) عن رحيلها قائلة:

- يبدو أن زيوس قد أتى، سأرحل أنا ولا تنسي أن تخبريني ماذا حدث بينكما وما هي خطته مع أفروديت؟
- حسنًا حسنًا سأخبرك بكل شيء.

تذهب (أثينا) من حيث أتت، وتهرول (هيرا) إلى مخدع (زيوس) تتغنج بصوتها الشادي له، فنقطة ضعف الرجل هي المرأة اللعوب، فيمكنه أن يفعل أي شيءٍ لها من خلال تدللها عليه، تدخل

عليه وعيناها مليئتان بالحب والغيرة والرغبة تجاه هذا الشهواني، وهو لا يهمه أي شيءٍ سوى أن يملأ رغباته وغرائزه بما يريد فقط.

تهم (هيرا) في استخدام أسلحة الأنثى أمامه، فالأنوثة سلاح يمكنه أن يخضع أي رجلٍ كان تحت إمرة الأنثى، فتجلس بجانبه ناظرة لعينيه متأملة هذا الطفل الموجود فيهما، تتذكر كيف كان (زيوس) حنونًا طيبَ القلب لا يرى سواها في هذا الكون، لكن كل هذا قد اختفى، فمِن هذا الطفل البريء جاء هذا الشهواني، جاء هذا المتكبر ولا نعلم لمَ أتى؟ وكيف أتى؟ إلا أن السلطة يمكنها أن تغير أي شخصٍ كان، فكما نعلم أن (زيوس) هو كبير آلهة جبل أولومبوس، ويمكنه التصرف كيفما شاء أينما شاء وقتما شاء.

تبدأ (هيرا) الحديث معه بتغنجٍ شديد، يخرج من صوتها لتذيب هذا الوحش الكاسر الماثل أمامَها قائلة:

ـ لقد اشتقت إليك كثيرًا يا عزيزي.

ليرمقها هو أيضًا بنظراتٍ تلتهب لها الأنفاس مجيبًا:

ـ وأنا أيضًا اشتقت لكِ يا حلوتي.

فَيَهُم بالانقضاض عليها كانقضاض الليث على الشاه، لتهرب هي مسرعة من قبضته متصنعة التدلل عليه قائلة:

ـ لا لا لا، أنا مستاءة منك جدًّا ولا أريد أن أحدثك.

ليجيبها وعيناه تمتلآن رغبة وشهوة تجاه هذه الحورية الجميلة:

ـ لماذا؟ ماذا فعلت لكل هذا الاستياء؟! أنت تعلمين إلى أي مدى أنا أعشق عينيكِ وشفتيكِ وكل ما هو مُجمل بكِ.

ـ لا تحاول أن توقعني بكلامك المعسول هذا، فقد اتفقنا على شيءٍ وأنت لم تنفذه بعد.

يسترد (زيوس) في التفكير محاولًا أن يتذكر ما هذا الاتفاق ليقول سائلًا:

ـ اتفاق! أي اتفاق؟!

ـ هل رأيت؟ لقد تلاشى كل شيء من رأسك، حتى أنك نسيت ما قلناه هذا اليوم.

ـ أعتذر بشدة يا حلوتي، لكن أخبريني بشفتيكِ تلك التي أريد أن ألتهمها على ماذا اتفقنا؟

لتقترب منه (هيرا) وتلتصق به وتشعل لهيب أنفاسه بأنوثتها الطاغية قائلة:

ـ اتفقنا على أن نتخلص من أفروديت، تتذكر هذا صحيح؟!

ـ نعم نعم بالتأكيد أتذكر، أنا فقط انشغلت بعدة مواضيع أخرى ونسيت هذا يا عزيزتي، لكن لا تقلقي فقد رتبت كل شيء للتخلص من تلك المغرورة.

ارتسم شبح ابتسامة على وجه (هيرا) لعلمها بهذه المواضيع التي انشغل (زيوس) بها، فهو يظن أنها لا تعلم خيانته المستمرة لها ولكبريائها، فتجيبه والابتسامة ما زالت على وجهها:

ـ وما هي تلك الترتيبات؟ شاركني خطتك لأفهم ماذا سيحدث؟

يجيبها (زيوس) وعلى وجهه ابتسامة يشوبها الشر والخبث:

ـ سأرسل لها عاشقًا، لكن ليس من هذا العالم.

تندهش (هيرا) من واقع ما سمعت لتقول والحيرة تتملك أحبالها الصوتية:

ـ ماذا؟! كيف هذا؟ وأي عالم تقصد؟

ـ ستعلمين كل شيءٍ في وقته يا عزيزتي لا تقلقي، لكن أريدك أن تعلمي أن بعد فترة لن تجدي لأفروديت أثر.

الآن سيستكين قلب العاشقة لمعشوقٍ لا يبالي بها مثقال ذرة كما هي تبالي به، الآن ستهدأ العواطف الجياشة قليلًا بداخل (هيرا)؛ لأن من تُسبب لها خطرًا سترحل نهائيًا عن بالها وخوفها.

***

يتأملها كأنها آخر نجمات السماء..

يتأملها كأنها أول خيط من خيوط الفجر..

يتأملها كأنها ثاني معزوفة من معزوفات بيتهوفن..

يتأملها كأنها بداية عمرٍ جديد قد كُتب له من قِبل هذا الجمال..

يتأملها لأنها أبهى نساء الكون جمالًا وأكثرهن حُسنًا وتجملًا، ينظر لها والشوق والولع والاشتياق يملؤون قلبه ووجدانه، لا يستطيع أن يكف عن النظر لها بعين عاشقٍ ملتهب الإحساس والأشواق تملأه، يقترب منها أكثر ليرى هذا الجمال بصورةٍ أوضح وأنقى وأزهى من هذا البعد، ليجد قلبه يتفوه بأبيات الشعر قائلًا:

عيناكِ تملآن حجرتي بالسرور

وأنا النديم في الجفون غريق

ألا تُلقي لقلبي الطوق..

فالدمع عاتٍ والضلوع تضيق

أصبحتُ بين الناسِ

كالناسي..

والقلب خمرٌ يسقني

فأفيق..

هلا امتنعتِ عن بزوغ الليل

فالليل تائه عن أهضان الطريق..

هيا بنا يا حلوتي..

نَبلغ الأحلام بعينيكِ نَبلغ الأشواق بعينيكِ

نَبلغ الأحزان بعينيكِ

نُبلغ العشاق أنني أعشقك.. أنني ارتويتك...

لتلتفت له من يُقال فيها تلك الأبيات لتجد (أبولو) إله الفن والشعر والموسيقى يغازلها بأبياته الشعرية التي ارتجلها لهذه الفاتنة (أفروديت)، فيمكن للصخر أن ينطق ليصف جمالها، ويمكن للهواء أن يتجمل بأنفاسها، فما بالك بأحد آلهة هذا الجبل، فـ (أبولو) يتميز بلسانٍ من حرير، لا تستطيع امرأة أن تتصدى لغزله أو شعره الموزون، لكن (أفروديت) ليست كأيةِ امرأة لتقع في شِباك هذا الكلام المعسول، لتبتسم له قائلة له في دلال:

ـ ألن تكف عن تلك المغازلات يا أبولو؟!

ليجيبها ضاحكًا:

ـ لن أكف حتى تكفين أنت عن التزايد في الجمال.

ـ لن تفيدك تلك الحيل يا أبولو، لن تنال مني ما تريد.

ليتعجب (أبولو) من هذه الطريقة مستفهمًا:

ـ وما الذي أريده برأيك؟!

ترتسم على شفتيها اتسامة سخرية مجيبة:

ـ جسدي، أنت تريد جسدي، وكل من على هذا الجبل يريد جسدي، يريد أن يتذوق ما بي من نعيم، لا أحد

منكم يريد قلبي، كل ما تفكرون فيه هو أن تستلذوا بي وبمفاتني فقط، لكن مشاعري ليس لها أهمية لكم.

يتوتر (أبولو) من هذا الكلام لأن هذا الكلام هو الحقيقة المطلقة، فيجيبها بطريقةٍ تبرئهُ من هذا الاتهام قائلًا:

ـ لا صدقيني، أنا لست مثلهم أنا...

لتقاطعه (أفروديت) قائلة:

ـ تكذب، أنت الآن تكذب، أتعلم ما هي مشكلتكم؟

ليقول لها بتعجبٍ وحاجبيه معقودين ببعضهما:

ـ ما هي؟!

ـ أن أنفاسكم تفضحكم، فالمرأة تعلم من الذي يريد قلبها ومن الذي يريد غرضًا دنيئًا منها، النساء لسن غبيات كما تظن يا أبولو، وأنت تعلم أنني لست مجرد امرأة، أنا (أفروديت) ربة الجمال، أنت تحدث الجمال بعينه أيها المخبول، لست إحدى فتياتك لتفتنني بك من أبياتك الشعرية أو كلامك اللبق معهم، تذكر هذا ولا تنسى.

ـ لمَ لا تصدقينني؟! أنا حقًا أحبك.

لتجيبه وابتسامة السخرية تتسع أكثر:

- يا عزيزي قلت لك إنك تحب جسدي لا تحب قلبي، رجاءً تفهم هذا الفرق.
- أقسم لكِ أتفهم هذا، وأنا أحب قلبك لا جسدك تفهَّمي أنت ذلك.
- حسنًا سأثبت أنني على حق.
- كيف؟!

لتقوم (أفروديت) من مخدعها واقفة أمامه وسط تلك الطبيعة الخلابة، وعيناها في عينيه تتأملان نظراته الشهوانية لها، لتقوم هي بخلع ملابسها أمامه حتى صارت عارية تمامًا وظهر هذا الجسد الوهاج، هذا الجمال المنحوت، هذا العود المصبوب باللؤلؤ والياقوت، فلا يستطيع (أبولو) أن يتمالك نفسه محاولًا أن ينقض عليها ويتملكها، لكنها كانت أسرع منه وفرت من قبضته حتى سقط على الأرض، لتنظر له باحتقارٍ شديد قائلة:

- اقتنعت الآن بالفرق؟! لو كنت عاشقًا لن يهمك إن كنت عارية أم لا، لأن القلب هو من يرى لا العين، لكنك لا تعلم معنى العشق فرأيتني بعينيك لا بقلبك، أتمنى أن تكون قد تفهمت الفرق يا أحمق!

لترتدي (أفروديت) ملابسها تاركة هذا المسكين على الأرض يلملم فتات كرامته التي تناثرت على أرض هذا الكون ذاهبة إلى حيث لا تعلم والحزن قد عشعش في قلبها ووجهها

الجميل هذا، لكنها تنتظر العشق الحقيقي، العشق الذي سيزيل هذا الحزن الواجم على قلبها ووجهها، العشق الذي حدد ميعاده بالقريب لكنها لا تعلم ذلك.

***

في عالم المعجزات يُحلق هو الآن، يُحلق بين هذا وذاك من الأطياف الأثيرية ولا يعلم ما هي وجهته، لا يعلم إلى أي مكانٍ يذهب، فكلما حلق ليرى حبيبته يشمئز من منظر نوم رجلٍ آخر غيره بجانبها، فقد تخيل كل مستقبله معها ولا أحد سواها قد تملك من قلبه بهذا الشكل، لكنه بدأ يكرهها بالفعل ـ نعم يكرهها ـ فعندما كان يزورها بطيفه الأثيري في يوم ما، وجد زوجها يضاجعها – شيءٌ طبيعيٌ بين أي زوجين– وتتغنج هي من تحته بشغفٍ كبير كأنها لم تحبه قط، كأنها كانت تحبه هو من البداية، فالمرأة لا تُسلم جسدها إلا إلى من أحبت فقط.

يتمنى من داخله أن يحطم كل ذكرى تذكره بهذا الحب الهش، يتمنى أن يخضع له قلبه لينتزعها من داخله، فقد كانت كالوحمة ليست وشمًا حتى، كانت فطرة بداخله، شيء مقدس في محراب قلبه يزوره كل يوم ليقدم له فروض العشق والطاعة، لكن لا، لن يخضع لقلبه بعد الآن، فقد أقسم على أن يُتلفها من حياته تمامًا، أقسم على أن قلبه لن ينخدع من جديد في مصيدة الغرام تلك، فقد لُدغ من جحر العشق، لكن العاشق يُلدغ من هذا الجحر

مئة مرة حتى يصبح قلبه فتات من هذه اللدغات، فلا يستطيع أن يأمن للحب من جديد حتى وإن وجد الشخص المناسب.

يحلق (عابر) بين هذه الأطياف كما قلنا، ولا يعلم ما هي وجهته، لكن فضوله يدفعه إلى أن يعلم ما هي تلك الأبواب المزنجرة التي تعلو سماء هذا العالم؟!

ففي سماء هذا العالم الأثيري تجد أكثر من بوابة مغلقة بإحكام شديد، ولا تفتح إلا بمفاتيح مخصصة لكل بوابة من تلك البواباتً، فلا يعلم إلى أي عالم تدخلًك تلك البوابات أو أي مستقرٍ ستستقر فيه.

يتلفت (عابر) يمينًا ويسارًا يتأمل تلك الأطياف الحالمة بالخلاص من العالم الواقعي المليء بالصراعات والهاربة إلى هذا العالم الأثيري، لكن لحظة، من هذا؟! هناك شخصٌ قد لمحه (عابر) يشبهه تمامًا،

ها هو ذاهبٌ ليبحث عن هذا الشخص وقلبه يخفق بشدةٍ محاولًا أن يجده بين تلك الأطياف المحلقة، دالفًا لممرات خارجًا من أزقه، يبحث عن هذا الشبح الذي ظهر له كلمح البصر ثم اختفى، ليدخل إحدى ممرات هذا العالم ليجد نفسه في اعتقاده أنه أمام مرآة يرى فيها هذا الشبح الذي لمحه، ليجده صورة طبق الأصل منه، لكن على وجههِ ابتسامة خبثٍ وشر مريبة، وتزداد تلك الابتسامة في الارتسام على وجهه ناظرًا إليه (عابر) في حذرٍ شديد، وقلبه يخفق

بنبضات الخوف من هذا الذي أمامه، لتزداد الابتسامة اتساعًا وتنبت من بين أسنانه أنيابٌ كبيرة، وتظهر قرونٌ صغيرة على حافة جبهته، ليحاول فجأة وبحركة غير متوقعة أن يهجم على (عابر).

ليقوم (عابر) مفزوعًا من على فراشه لا يعلم ماهية ما رآه في هذا العالم! أو لعله كان يحلم، حلم؟! لا لا إنه كابوس، في الواقع هو لا يعلم إن كان كابوسًا أم أنه كان في هذا العالم بالفعل، هو لا يعلم أي شيءٍ سوى أنه ما زال يشعر بنبضات الخوف التي تملكت قلبه من واقع ما رأى، يحاول أن يقوم من على فراشه ودقات قلبه ورعشة جسده تمنعانه، ليرتمي مجددًا على فراشه مغمضًا عينيه برهة ليرى هذا المسخ من جديد، ليستقيم على فراشه فزعًا من واقع ما رأى، مهرولًا إلى دورة المياه ليسكب على وجههِ بعضًا من الماء ليفيق من هذا الكابوس الذي جاء له بلا استئذان مستبيحًا حرمة عالمه وأحلامه.

ينزل (عابر) من منزلهِ مشرعًا باب سيارته ذاهبًا لعمله الجديد الذي قد أتى به له صديقه المقرب (فهمي) في إحدى الصحف والتي يعمل بها أيضًا، لكن برغم هذا التغيير إلا أن هذا الكابوس قد عكر صفوه ولا يعلم ما وراءه، أهو كابوس أم أنه بالفعل كان في عالمه الأثيري؟ هو لا يعلم شيئًا، إنه حائر في واقع ما رأى، يسرح بأفكاره لعله يجد تفسيرًا لهذا المسخ الذي رآه، ليجد فجأة أن أحد السائقين قد اصطدم بسيارته وولى مسرعًا، ليركن (عابر) سيارته

خارجًا منها ليرى ماذا حدث في سيارته، ليجد أن الفانوس الخلفي قد تحطم بالكامل ويجد أحد المارين يقول له بصوتٍ مرتفع:

ـ قل الحمد لله.

لينظر له (عابر) في استغرابٍ شديد مجيبًا عليه:

ـ على ماذا؟!

ليرد عليه الرجل بابتسامةٍ طيبة: على أي شيء.

تاركًا هذا الرجل صديقنا يلعن ويسب في من فعل بسيارته هذا ناظرًا للسماء مرددًا:

ـ على ماذا؟! على ماذا يا الله؟!

عائدًا لسيارته يسب ويلعن هذا اليوم المليء بالحوادث النفسية والمادية، لكنه برغم كل تلك الحوادث إلا أن عيون تلك الفتاة المكحلة بأشعة الشمس الساقطة عليها، والتي كانت تجاوره الطريق في هذا الميكروباص الذي كان بجواره وهو سائق قد أرسلت إلى قلبه الهدوء والسكينة، وكأنها رسالة إلهية قد أتت له على هيئة عينين تفيض منهما المواساة، ليهدأ قليلًا من حوادث ذلك اليوم العصيب، ويبدأ الشروع في عمله بالجريدة، فبعد أن جلس على مكتبه وطلب فنجان قهوة من العامل الموجود بالجريدة، أخرج من حقيبته كتيب «رسائل إلى السماء» ليبدأ فيه خطابه الجديد مع الله كاتبًا:

«ضعف، خزي، انكسار، لا مبالاة، برود، بكاء، صراعات، غضب، سقوط، كل هذا بي وأنت تعلم!

أما بعد..

فماذا بعد؟ ماذا بعد كل هذا يا الله؟!أنا أسقط كأوراق الشجر..

أسقط كحجارة سجيل..

أسقط كأول دمعة من عين مغترب..

أسقط كآخر جندي ظن أنه بمفرده سيغلب جيشًا كاملًا..

أسقط، وأسقط، وأسقط، وأسقط، ثم ماذا؟أين يدك التي لم تمدني بها؟أنا أصطاحبك يا الله لتنتشلني مما أنا فيه، مرهق يا الله، مرهق وأنت تعلم وأعلم بما في داخلي من صراعات..

يا الله أنتظرك، أنتظرك كل يوم لتدفعني إلى النهوض من جديد..

أنتظرك والقلب يشتاق لرؤيتك لكنه يخشى اللقاء..

اليوم حدث معي مكروه، رأيت أكيد ما حدث، وقال لي غريب أن أحمدك..

لكن عَلامَ؟! لا أقصد التطاول يا الله أنت تعلم، لكن كيف أحمدك وقد حدث معي مكروهًا؟! أريد أن أعلم فقط ما هو سر هذا الحمد؟أريد أن أعلم لماذا من الأساس يوجد مكروه؟

أريد أن أعلم إجاباتٍ كثيرة يا الله على تساؤلات بداخلي أنت تعلمها، أنتظر منك الإجابات يا الله، أنتظر منك أن تأخذ بيدي لأنني محطم من الداخل..

كدت أنسى أن أشكرك يا الله على أنك أرسلت لي عيني تلك الفتاة الجميلة لتهدئ من توتر هذا اليوم، حقًا أشكرك وأنتظر منك إجابات على تساؤلاتي التي لا تليق بجلالتك.

أحد خلقك».

ليغلق هذا الكتيب المليء بالرسائل المرسلة للسماء والتي لم يجد عليها ردًا حتى الآن، ويبدأ بشرب قهوته والبدء في الأعمال المقررة عليه في هذا اليوم العصيب ليجد صديقه (فهمي) يربت على كتفه قائلًا:

ـ كيف حال يومك يا صديقي؟

ليجيبه (عابر) والاستياء ظاهر في نبراته:

ـ مليء بالاضطرابات النفسية يا صديقي، لكن دعك من هذا، متى موعد زفافك؟

ـ بعد ثلاثة أشهر يا صديقي.

ليقول له مازحًا:

ـ على خير يا صديقي.

ويتركه (فهمي) مكملًا أعماله، تاركًا صديقه في حيرةٍ من أمره مما حدث في هذا اليوم غريب الأطوار.

***

الشر، الخبث، الاستغلال، الحقد، الكذب، الخداع، الحاجة، المساومة، كل تلك الصفات لا توجد في إبليس نفسه، لكنها توجد في هذا الشخص الانتهازي، ليقوم من على فراشه وابتسامة الخبث تجتاح وجهه بعدما عاد من عالمه الأثيري هذا، يبدو أن هناك صيدًا جديدًا سيغتنمه اليوم، ليقوم من مكانه مهندمًا ملابسه ككل مرةٍ يجد فيها الصيد المناسب مستغلًا نقاط ضعف ضحاياه، آخذًا سيارته متجهًا إلى ميدان المساحة بمنطقة الدقي، فالفريسة المراد التهامها تكمن في هذه المنطقة، ليصعد إلى الدور السادس في إحدى عمارات الدقي، واقفًا أمام باب شقة ما مفتوحة أبوابها، ومكتوبًا أعلاها «الدكتور محسن شوقي للطب النفسي»، دالفًا لتلك العيادة كأي مريض يريد أن يكشف عند هذا الطبيب، منتظرًا الإذن من الطبيب أن يدخل له ومعه كارت قد أعطته له تلك الفتاة المسؤولة عن حجوزات الكشف به أرقام وأماكن العيادات الموجود فيها الطبيب بين الحين والآخر.

يدخل (حمزة) للطبيب والابتسامة المعهود بها ما زالت على وجهه، جالسًا على الشيزلونج ممددًا خبثه واستغلاله عليه ناظرًا لهذا الطبيب بابتسامةٍ مريبة، ابتسامة وراءها سر ما، ليبدء الطبيب الكلام قائلًا:

ـ مرحبًا بك، ما اسمك؟

ليجيبه (حمزة) ولا تزال تلك الابتسامة المريبة على وجهه قائلًا:

ـ اسمي! هذا لا يهم الآن، الأهم من اسمي هو ما الذي أتى بي إلى هنا؟

ليبتسم الطبيب ابتسامة يشوبها التوتر قائلًا:

ـ حسنًا أخبرني ما هي مشكلتك؟

وترتفع ضحكات (حمزة) بالتدريج كأنها ضحكات شريرة متقطعة ليقول:

ـ بل ما هي مشكلتك أنت؟

ليمسك حلقه فجأة كأنه يختنق ليقول:

ـ دكتور محسن، أرجوك كوب ماء، إنني أختنق.

ليقوم الدكتور (محسن) مسرعًا ليأتي له بكوبٍ من الماء ليكون هذا وقتًا كافيًا لـ (حمزة) في أن يأخذ الهاتف المحمول الذي يملكه الطبيب، آخذًا منه كارت الذاكرة سريعًا ويضعه مكانه قبل أن يأتي الطبيب، ليدنو منه الطبيب ممدًا له بالكوب ليقول له (حمزة) والشر يقدح من عينيه:

ـ أنت أولى بها مني، فاجلس واستمع جيدًا لما سأقول ولا ترتكب الحماقات لأنك ستندم.

يتعجب الطبيب (محسن) من هذا الأسلوب مجيبًا عليه:

ـ ما هذا الأسلوب الذي تتحدث به؟! كيف تحدثني هكذا؟!!

ـ قلت لك اجلس واستمع جيدًا حتى لا يقع على سمعتك ضرر.

ـ سمعتي! ماذا تقصد؟!

ينظر له (حمزة) وعيناه مليئتان بالشر مجيبًا:

ـ أقصد استغلالك لمرضاك، ألم تحلف القسم يا دكتور بعد تخرجك أم ماذا؟ طبيب بهذا السن ويبتز فتيات في عمر بناته، يا للأسف!

ليظهر التوتر على وجه الطبيب والعرق يرشح منه كالمطر في ليالي الصيف قائلًا:

ـ ماذا؟! ماذا تقول يا هذا؟! ما كل تلك التخاريف؟

ليجيبه (حمزة) بثقةٍ شديدة:

ـ هذه ليست تخاريف أيها المخبول، إنها الحقيقة، الحقيقة المطلقة، حقيقة تلك الأشياء المبهمة، الأشياء التي لا يعرف سرها أحد سواي، إن أردت النجاة فانصت لي جيدًا حتى لا يصيبك أذى.

ـ ماذا تقصد؟ وما فائدة كل هذا؟

- أقصد استبزازك لمرضاك وتهديدك لهم بتلك التسجيلات التي تسجلها لهم أثناء كل جلسة، وابتزاز الفتيات بتصويرهن في أوضاع مخلة، لكن ما لا تعلمه ولا يعلمونه أنك لا تملكُ الجرأة لتنشر تلك المقاطع لأن سمعتك ستصاب بالضرر من واقع تلك المقاطع الدنيئة الاستغلالية، لكن أنا باستطاعتي أن أفضح تلك الأعمال القذرة.

ليجيبه الدكتور (محسن) محاولًا أن يبلع ريقه:

- كيف؟! كيف عرفت كل هذا؟!!
- لا يهم كيف، المهم الآن ثم ماذا؟، أنا حاليًا أمتلك كارت الذاكرة الموجود في هاتفك الذي يحتوي على نسخة من تلك المقاطع، وإن لم نتفاوض ستكون تلك المقاطع منتشرة على صفحات الإنترنت، ها ماذا قلت؟ وآه قبل أن أنسى، يوجد معي كاميرا تسجل الآن كل شيءٍ ببثٍ مباشر لأحد أصدقائي حتى لا يجرك تفكيرك إلى أن تفعل أي شيءٍ يقع عليَّ بخطر.

ليصمت الدكتور (محسن)، لا يعرف ماذا يقول أو بماذا يجيب مستمرًا في صمته مقاطعًا (حمزة) هذا الصمت قائلًا بطريقةٍ حازمة:

ـ لا أملك وقتًا كافيًا لأضيعه معك، أتريد الخلاص وأن أتستر على أفعالك؟

ليقول بتلهفٍ شديد:

ـ نعم أرجوك.

ـ حسنًا أريد شيكًا بمليون جنيه.

ـ ماذا؟!! أجننت؟!! هذا مبلغ كبير وأيضًا...

يقاطعه (حمزة) بحزم قائلًا:

ـ لا أظن أن طَبيبًا مثلك يمتلك ثلاث عيادات غير هذه، ويظهر في التلفاز كل أسبوع في إحدى القنوات المشهورة، لا يمتلك أضعاف أضعاف أضعاف هذا المبلغ.

لا يستطيع الدكتور (محسن) أن يجد مفرًا من هذا الشخص الغامض مستسلمًا لحبكتهِ قائلًا:

ـ حسنًا سأكتب لك شيكًا بهذا المبلغ مقابل أن تعطيني كل شيءٍ يخصني.

ـ لا أظن هذا، لأن الكارت سيبقى معي حتى أصرف هذا الشيك كي أضمن حقوقي يا دكتور.

ـ لكن هذا ليس عدلًا.

ـ حسبتك لن تتوقع عدلًا من شخصٍ يحاول ابتزازك! حسبتك أذكى من هذا بكثير يا دكتور.

ويستسلم الدكتور (محسن) لهذا الشخص المثير للريبة، فلا يستطيع أن يأخذ منه حقًا أو باطلًا، فهذا الشخص لا يمكنك التفاهم معه، إنه يأخذ ما يريد ويرحل، لا يمكنك منعه أو ردعه، يأخذ كل ما يريد بعقله وحنكته، العنف ليس أسلوبه، يتعامل ببرودٍ شديد، تجد في عينيه الشر كامنًا في مخدعه، هذا الشخص أتمنى لك ألا تقابله مثلما قابلته وكنت أحد ضحاياه، أتمنى لك ألا تقابله في طريقٍ واحد حتى، فالشر والخبث والخداع والاستغلال وُجِدوا لهذا الشخص لا أحد غيره.

***

يتردد في أن يدخل هذا العالم، يخشى أن يرى هذا المسخ مرة أخرى ويكون له هذا العالم بعدما كان عالمَ الهروب من المخاوف والألم، يكون له كل المخاوف والألم، لكنه يريد أن يذهب إليه، يريد أن يهرب من هذا السجن، لكن ما رآه قد نغَّص عليه هذا العالم الجميل الذي كان ينعم فيه بالحرية المطلقة، لكنه لن يستسلم لمخاوفه بعد الآن، فمن ذاق طعم الحرية لا يستطيع أن يشبع منها، فقد اعتاد على أن يتجنب كل الأشياء التي تسبب له الأذى أو الضرر أو تشعره بالخوف، لكنه الآن لم يعد هذا الشخص الانهزامي، سيواجه كل شيء، سيذهب لعالمه مواجهًا مخاوفه، فهذا عالمه ولن يستطيع أحد أن يمنعه من دخوله مرة أخرى.

يستلقي (عابر) على فراشه مغلقًا عينيه مستعدًا لدخول هذا العالم الشاسع بالحريات والخيالات الواقعية، متأملًا ألا يرتعد من هذا المسخ إن قابله من جديد، فالشيء الوحيد الذي يرعبه أنه يشبهه بشدة، لا ترعبه تلك القرون أو الأنياب أو شعره الكثيف، بل هذا الشبه المخيف ما يرعبه حقًا، لكن لا يهم، سيواجه هذا بكل ما أوتي من ولع واشتياق لعالمه، ليجعل من عينيه بوابة لدخول هذا العالم، عالم الإسقاط النجمي.

يسبح بين الأطياف منتظرًا أية مفاجأة، منتظرًا هذا المسخ اللعين الذي صار يطارده في منامه كل يوم ويقوم من نومه مفزوعًا، لكنه لم يظهر حتى الآن، لم يشعر بأي شيءٍ مريب في هذه المدة التي كان يجول فيها بهذا العالم، لينسى هذا المسخ مستمتعًا بعالمه، متأملًا تلك الأبواب المغلقة الموجودة بسماء هذا العالم والفضول يأكل من روحه، يريد أن يعلم إلى أي عالم ستأخذه تلك البوابات وأين مفاتيحها، لتحدث المفاجأة الغير متوقعة، يشعر أن هناك يدًا تربت على إحدى كتفيه، وها هو متأهبٌ ليرى هذا المسخ من جديد، لكن حدث غير ذلك، فعندما التفت لم يجد ما يظن، بل وجد رجلًا عجوزًا ذا لحيةٍ كثيفة بيضاء، وشعره كالفضة السائلة على كتفيه، مرتديًا بذلة قديمة موديل السبعينات خارجًا منه صوتٌ جهورٌ وقورٌ قائلًا:

ـ أرى أن الفضول يدفعك لأشياء ستصيبك بالجنون.

ليتنهد (عابر) بارتياح لعدم صدق حدسه، وأن هذه اليد التي كانت تربت عليه كانت يدً أحد الأطياف وليست يد هذا المسخ، ليجيبه قائلًا:

ـ لولا الفضول لما كنا تقابلنا الآن.

ليبتسم هذا الرجل العجوز ابتسامةً صافية ليقول:

ـ يبدو أننا سنصبح أصدقاءً.

ـ أتمنى ذلك حقًا، ما اسمك؟

ـ لا تهم الأسماء هنا، لا تهم، المهم هنا صفاء عقلك وقدرتك على معرفة جمال الأشياء، أرى أنك تتأمل كل يوم تلك البوابات المغلقة.

ليجيبه (عابر) باهتمام شديد:

ـ نعم، أريد أنً أعرف ما الذي يكمن خلف تلك البوابات؟ وأين مفاتيحها؟ وماهية كل بوابة منها و...

يقاطع هذا الرجل العجوز (عابر) قائلًا:

ـ أعرف كل شيءٍ عن تلك البوابات وأين مفاتيحها أيضًا، فإن أردت المعرفة ستجدني في مكانٍ ما في هذا العالم، عالمنا.

ـ لكني أريد أن أعرف كل شيءٍ الآن.

ليتنهد الرجل قائلًا:

ـ حسنًا، سأساعدك في فتح أهم بوابة في هذا العالم، بوابة ستدخلك عالمًا لم يسبق لك زيارته، عالم أشبه بجنات الخلد، عالم ستحصل فيه على كل ما تريد، فهناك شيء ينتظرك بداخل تلك البوابة لم يسبق لك أن تخيلته من قبل.

متعجبًا (عابر) من وقع تلك الكلمات مجيبًا:

ـ وما الذي ينتظرني؟!

ليجيبه الرجل العجوز بطريقةٍ تشويقية:

ـ ستعلم بعدما تجد المفتاح.

ليقول (عابر) بتلهفٍ شديد:

ـ وأين هذا المفتاح؟!

ليبتسم الرجل العجوز لهذا الشغف البادر من هذا الفتى الفضولي قائلًا:

ـ في معبد البارثينون.

ليرد عليه (عابر) وعلامات التعجب تقدح من وجههِ قائلًا:

ـ معبد البارثينون! أليس هذا المعبد باليونان؟!

ـ نعم باليونان، أيوجد مشكلة في ذلك؟!

ليصمت (عابر) برهةً يفكر في هذه المخاطرة، فربما هذا الرجل يكذب عليه، لكن ما الذي يدفعه للكذب عليه؟! فالمسافة لليونان ليست هينة، ربما يذهب إلى هناك ولا يجد شيئًا، لكنه لن

يخسر شيئًا في هذه الرحلة، فسيزور أماكنَ جديدة، ويخرج من سجنه الكبير وهو تلك البلد التي يعيش بها، خرج من صمته أخيرًا قائلًا:

ـ لا لا.. لا يوجد مشكلة، لا يوجد مشكلة إطلاقًا.

ـ حسنًا أتمنى أن تنعم برحلةٍ سعيدة في هذا العالم المليء بالنعيم الأبدي.

ـ كأنك تزيد شوقي إليه مثلًا؟!

ـ وكأن شوقك له لم يزِد من الوهلة الأولى مثلًا؟

ليبتسم (عابر) لفذلكة هذا الرجل وخبرة قراءة شغف الأشخاص لديه قائلًا:

ـ حسنًا سأذهب لأرى ما شوقتني له.

ليبتسم الرجل العجوز تاركًا الفتى في تخيلاته لهذا العالم الجديد، فهذا العالم الذي هو موجودٌ فيه الآن ما هو إلا عالمٌ صغير بداخل عالم أكبر وأكبر وأكبر، فلن يفهم أحدٌ هذا الشغف لهذا العالم الشاسع إلا من دخل فيه، إلا من ذاق طعم حرية الخيال المباح، إلا من خاطر بشغفه للوصول لتلك العوالم الكبرى للوصول لغايته من الحياة.

***

لن يحدث شيء، لن ننعم بالحياةِ التي رسمناها في خيالاتنا ولا في تلك الأحلام الهشة، سنعذب ونحارب ونقاوم لكن لن ننتصر، لن نحصل على ما نريد حتى وإن كان أمامنا، فهناك شخص ما بداخلنا يمنعنا من أي شيءٍ نحبه، يمنعنا عن الإتيان بمعاني تصف معنى الخزي بداخلنا.

***

يستمر هذا الطاغي في البحث عن ضحايا آخرين يوقعهم في شِباكه، لا يعلم لماذا يفعل كل هذا، لكنه يستلذ بتلك الصفقات التي يعقدها، يستلذ باستغلال الناس وأخذ ما يريد منهم والاختفاء عنهم، فهو الآن يبحث في هذا العالم الأثيري عن ضحيةٍ جديدة ليستغلها، فهو يعرف أسماء رجال الأعمال المهمين والمشاهير في مجال الإعلام ويراقبهم بطيفه الأثيري حتى يجد منهم أفعالًا يبتزهم بها.

يحلق ويحلق ويحلق، يريد أن يحصد ما يزرعه أولئك الفاسدون من شر، يريد أن يتمتع بشيءٍ مما يتمتعون هم به لكن بطريقته، لكن أثناء وجوده في هذا العالم حدث شيء غريب لم يحدث من قبل، وجد يدًا ما تربت على كتفهِ، ليجد رجلًا عجوزًا ذا لحية كثيفة بيضاء، وشعرة كالفضةِ السائلة على كتفيه، مرتديًا بذلة قديمة موديل السبعينات خارجًا منه صوتٌ جهوريٌّ وقورٌ قائلًا:

ـ ما تبحث عنه ليس هنا!

ليتعجب (حمزة) من هذا الرجل الأشبه بقطعة الأنتيكة قائلًا:

ـ من أنت يا هذا؟ وكيف تعرف ما أبحث أنا عنه؟!

ـ لا يهم من أنا أو كيف عرفت ما تبحث أنت عنه، لكني أدلك على كنزٍ وأنت لا تريده.

ليهم الرجل بالذهاب فيوقفه (حمزة) مسرعًا قائلًا:

ـ انتظر انتظر، كنز! أنت تمزح أليس كذلك؟

ـ أمزح! يبدو أنك أنت الذي تمزح، أنا لن أضيع وقتي معك، سأذهب لشخصٍ آخر يريد هذا الكنز حقًا.

ـ لا لا، أنا أريده حقًا، اعذرني فالصدمة كانت كبيرة علي، أين هذا الكنز؟ أريد الحصول عليه الآن.

ـ تمهل يا فتى ليس بهذه السهولة ويجب...

ليقاطعه (حمزة) قائلًا بعفويةٍ وعنفوان:

ـ أين هذا الكنز؟

تخرج ابتسامة من هذا الرجل العجوز يشوبها جملة لقد وقعت في الفخ يا فتى، ليشير هذا الرجل بإصبعه لأعلى ويرفع (حمزة) نظره معه للأعلى ليجد هذه الأبواب الموجودة في هذا العالم متعجبًا منها، كأنه أول مرةٍ يرى تلك الأبواب، مستفسرًا مِن هذا الرجل ليقول:

ـ تقصد أن الكنز موجود في إحدى تلك البوابات؟

- نعم يا عزيزي هذا صحيح.
- لكن تلك الأبواب مغلقة وتحتاج لمفتاح، وأيضًا لا أعلم أي بابٍ من تلك الأبواب يوجد فيه الكنز.
- لكنني أعلم كل شيء، أعلم مكان المفتاح وأعلم أيضًا أية بوابةٍ يوجد بها الكنز.

ليتعجب (حمزة) قليلًا مما يقوله هذا الرجل ليرد عليه قائلًا:

- حسنًا، أنت تعلم مكان المفتاح والبوابة، لمَ لا تأخذه أنت؟!
- لقد بلغت من العمر أرذله يا بني، لا أحتاجه، وأيضًا عندي ما يكفيني، وكنت أراقبك منذ فترة، ووجدت أننا متشابهين في أشياء كثيرة جدًا.

ليزداد تعجب (حمزة) قائلًا:

- وما هي تلك الأشياء؟!!
- لا تهم تلك الأشياء، لا تهم الآن، ما يهم الآن هو الكنز، أتريده أم لا؟
- بالطبع أريده، ماذا يجب علي فعله؟
- ستذهب فقط إلى معبد البارثينون وتجد المفتاح وتأتي به إلى هنا، وسيذهب بك المفتاح إلى البوابة المرادة، وبمجرد فتحك للبوابة ستجد الكنز أمامك.
- معبد البارثينون! أليس هذا المعبد في اليونان؟!
- نعم باليونان، أيوجد مشكلة في ذلك؟

ليصمت (حمزة) مفكرًا في كلام هذا الرجل، لتعود له تلك الابتسامة المعهود بها، فقد امتلك اليوم صيدًا كبيرًا، كنز! لم يكن يتوقع أن يحصل على شيءٍ كهذا أو مماثل له حتى، حتى أنه لم يكن يتوقع أن يلتقي بهذا الرجل العجوز، لكن هناك شيء ما بداخله دفعه لقبول هذا العرض، فهذه أول مرة يعرض عليه أحد عرضًا كهذا، فهو معتادٌ على أن يعرض على الناس عروضه وشروطه، لكن الفرق أن هذا العرض الذي عُرض عليه دون مقابل، أما العروض التي كان يعرضها كانت بمقابل، ليخرج (حمزة) من صمتهِ قائلًا وابتسامة الثقة تنتأ من وجهه:

- لا لا.. لا يوجد مشكلة، لا يوجد مشكلة إطلاقًا.
- حسنًا يا عزيزي، أعدك أن هذا الكنز ستسحر به، لن تحتاج شيئًا بعده أبدًا.
- لكنني لا أشبع حتى وإن امتلكت مال قارون.
- لا تظن هذا، لأن هذا الكنز سيشبع كل رغباتك.

ليتبخر هذا الرجل العجوز من أمامه، ويتعجب هو متلفتًا يمينًا ويسارًا باحثًا عن هذا العجوز، ولكنه أصبح سرابًا، لم يمر (حمزة) أبدًا بمثل هذا الموقف في حياته، لكنه سعيد بهذا الموقف الغير معهود، وينتظر بفارغ الصبر أن يأتي بهذا المفتاح ويأخذ كنزه ويستمتع به، لكنه لا يعلم أن هناك مفاجأة تنتظره خلف هذا الباب!

***

ـ أنت تمزح بالتأكيد! هل فعلت هذا حقًا؟!

تخرج تلك الكلمات من فم (هيرا) متعجبة مما فعله (زيوس)، فهي لم تكن تتوقع أن يتصرف بمثل هذا التصرف المجنون، مجيبًا عليها بسخريةٍ مفرطة:

ـ وماذا فعلت يا امرأة؟ لقد نفذت ما اتفقنا عليه، ألم تُرِدي أن تتخلصي من أفروديت؟ حسنًا سأخلصكِ منها قريبًا لا تقلقي.

ـ لكن كيف خطرت على بالك تلك الفكرة المجنونة؟! وكيف لك أن تخترق بوابة النجوم؟ لم أتصور أن تفعل ذلك حقًا.

لتظهر على شفتي (زيوس) ابتسامة فخرٍ وتعالي قائلًا:

ـ زيوس يفعل ما يحلو له، أنا كبير الآلهة يا هيرا أم تناسيتِ هذا؟!

لتجيبه (هيرا) بحرصٍ شديد:

ـ لا.. لا لم أنسَ بالتأكيد، لكنني أتعجب أفكارك تلك يا عزيزي، من أين أتت لك تلك الفكرة؟!

ـ زيوس لا يمتلك عقلًا واحدًا يا هيرا، إنه يمتلك آلاف العقول للتفكير والإتيان بشيءٍ لم يسبق له التفكير فيه من قبل.

لتقترب منه ونظرات الفخر والسرور ترتسم على ملامحها وكأن شيئًا ما كان يجثم على صدرها وتفتت، فالغيرة يمكنها أن تشكل المرأة كما تريد، فهذا الشعور مُهلك ويهلك صاحبه، فالغيرة يمكنها أن تدفعك لحد القتل، نعم القتل، لا تتعجب هكذا، فأسوأ إحساس يمكنه أن يقيدك وينهي أيةَ علاقة هي الغيرة، فيزيد اقتراب (هيرا) من (زيوس) حتى التصقت به تتدلل عليه، تريد أن تعرف تفاصيل خطته قائلة:

ـ لكن كيف ستعشق رجلين؟!

لتتعالى ضحكات (زيوس) بعد سماع ذلك ساخرًا مما قالته ليقول:

ـ أنت لا تعلمين ما هي حكاية هذين الرجلين، فبدون واحد منهم لن نقضي على أفروديت يا عزيزتي.

لتتعجب (هيرا) مما سمعت، وتتساءل مستفسرة:

ـ كيف هذا؟! أنا لا أفهم شيئًا.

ـ ولن تفهمي شيئًا إلا إن رأيتِ كل شيءٍ بأم عينيك يا عزيزتي، أعدك أنكِ ستشاهدين نهاية أفروديت قريبًا جدًا، لا تقلقي.

ـ أنتظر هذا بفارغ الصبر يا مولاي، لكن كيف اجتزت بوابة النجوم؟ أنا لا أصدق.

لتتعالى ضحكات (زيوس) ليقول بكل فخرٍ:

- يا عزيزتي إن العبور لتلك البوابة لهو أمرٌ سهل، لكن على من يقوى عليه، فبعد المرور من تلك البوابة تجدين نفسكِ حرة طليقة، كأنكِ تمتلكين العالم بأسره، كأن هذا الكون صار بين إصبعيك.

لتقول (هيرا) بكل تلقائية:

- أريد أن أذهب لهذا الكون.
- هذه ليست نزهة، الأمر أصعب من ذلك، فهذا العالم في لحظة يمكنه أن يصبح سجنًا وتسجنين بداخله، الأمر ليس سهلًا يا عزيزتي، ليس سهلًا!

***

لا يطيق (عابر) الانتظار للدخول لهذا العالم الجديد، هذا العالم الذي سيجد فيه ما لا يتوقعه، سيجد فيه كل معاني الجمال التي رسخت في الكتب والروايات القديمة، فبعدما وصل لمدينة أثينا ذهب على الفور لمعبد البارثينون ليبحث عن هذا المفتاح الذي سيفتح له أبواب السعادة، أبواب الحرية المطلقة، أبوابًا لم تفتح له من قبل.

يدخل (عابر) إلى المعبد أخيرًا باحثًا في كل مكانٍ عن مفتاحٍ ما، فيبحث هنا وهناك ووراء كل الأعمدة، مشتاق للذهاب، مشتاقٌ للحرية، مشتاق لكتم صرخات والده بهذا العالم، فيظل

يبحث ويبحث ويبحث، فلا يجد شيئًا، لا يجد سوى آمال وأحلام تتحطم، لا يجد سوى صرخات بداخله تنوح على حاله، لكن لحظة ما هذا البريق؟! هناك في أعلى أحد أعمدة هذا المعبد شيء يلمع كأنه نجم يتلألأ في سماء هذا المعبد، فيحاول أن يصعد هذا العامود لكنه لا يستطيع، فهذه الأعمدة ضخمة ولا يمكن الصعود عليها، يحاول ويحاول لكن محاولاته تبوء بالفشل الذريع، إحساسٌ مرهق أن تجد ما تريده أمامك ولا تستطيع الوصول إليه، حينها تشعر بعجزٍ لم تشعر به مطلقًا، لكنه يحاول، ويكرر محاولاته يائسًا، ليصل به البؤس إلى أن يمد يده كالأطفال له وكأن هذا البريق سيأتي إليه، لكن لحظة! إنه يأتي إليه بالفعل!! وكأن هذا البريق قد أحس بشغف هذا العاشق، فكلما مد يده اقترب المفتاح أكثر وأكثر ليصبح في متناول يده أخيرًا، ليجد أن هذا البريق هو بالفعل المفتاح، مفتاح سعادته، مفتاح سيتيح له كل شيء، سيتيح له حياة أبدية من السعادة.

***

يجول (حمزة) في شوارع مدينة أثينا محاولًا الوصول لمعبد البارثينون ليصل أخيرًا له، ويرى هذا المعبد الأثري الذي خلَّده التاريخ لنا، لنرى فيه ذكريات الماضي ولمسات الحاضر ونظرة المستقبل، وها هو يدلف إليه ونظرات الخبث تملأ وجهه، يحاول أن يبحث عن مفتاح الكنز، لكنه لا يجد شيئًا! يبحث مرة

أخرى لكنه لا يجد شيئًا! لكن فجأة يظهر ضوء قوي من فوق أحد الأعمدة، ليذهب لهذا العامود متفحصًا إياه، ويجد أن هذا الضوء الساطع قد تحول لمفتاحٍ أثري قديم في متناول يده، فيقف مشدوهًا محاولًا استيعاب تلك المعجزة.

ينظر (حمزة) للمفتاح وعيناه تشعان بالطمع المبالغ فيهما، لا يكاد أن يصدق أنه أخيرًا يمتلك المفتاح الذي سيصل به إلى هذا الكنز العظيم، كنز لن يطمع بعده أبدًا، كنز سينسى به كل أيام العذاب التي رآها في حياته الماضية.

***

تستيقظ من نومها وقلبها يخفق خفقات غريبة، خفقات لم تشعر بها من قبل، هناك شيء ما بداخلها يخبرها أن هناك شيء ما سيحدث، شيء سيغير لها مجرى حياتها ونبض قلبها، لا تعلم ما هو سر تلك الخفقات المريبة، فهي لم تشعر بهذا الإحساس من قبل، لم تشعر بإحساسٍ مشابه لهذا من قبل، لم تشعر حتى بقلبها من قبل، فتقوم من على فراشها ونبضات قلبها تسابق كل شهيقٍ وزفيرٍ تأخذه، لتقوم فتتهندم بأحسن الملابس، وتتعطر بأجود العطور، وتتزين بزينتها الكاملة كأن هناك حدثًا ما في غاية الأهمية اليوم.

تنزل من قصرها وهي تتهادى في الحدائق المزهرة لتجد (إروس) جالسًا وسط الورود ممسكًا آلة النفخ الخاصة به ويعزف عليها، لتنادي (أفروديت) وصوتها قد كان أشدى من العزف قائلة:

ـ أيها الحزين، اعزف لنا شيئًا يرسم الابتسامات ودعك من هذا الحزن.

فيلتفت (إروس) ليجد أمامه منحوتة من الجمال السرمدي، لم يرَها بهذا الجمال من قبل، كانت كالقمر الذي...، لا لا، بل كان القمر مثلها، كانت فائقة الجمال بالفعل، لم يرَها بهذا الجمال من قبل، ليجيبها وعيناه تتفحصان كل شيءٍ فيها:

ـ إن كنتِ تريدين عزفًا يرسم الابتسامات فأسمعيني صوتك، فهو بالنسبةِ لي أجمل مقطوعة موسيقية قد سمعتها في حياتي.

لتصمت (أفروديت) خجلةً من تلك الكلمات التي وقعت عليها كالماء البارد، ليبتسم (إروس) قائلًا:

ـ تلك المرة الأولى التي أرى فيه كسوفيّ الشمس والقمر في وجهك الشبيه بجمال السماء.

ـ لا تبالغ هكذا يا إروس.

ـ أنا لا أبالغ حقًا، تبديت فاتنة الجمال اليوم، هل هو مميز بالنسبة لكِ أم ماذا؟

ـ لا أعلم حقًّا يا إروس ما الذي دهاني؟ فقد استيقظت هذا الصباح ولا أعلم ما الذي خطر على قلبي، فهناك إحساس غريب يسيطر عليَّ اليوم لا أعلم ماهيته.

ليتعجب (إروس) من تلك الكلمات مستفهمًا:

ـ كيف هذا؟! ما خطبك يا أفروديت؟!!

ـ لا أعلم يا إروس، لكن كل ما أعلمه أنني سعيدة بهذا الشعور.

ليرد عليها هذا المسكين والكل يشفق على حاله:

ـ أرى خُطى العشق في عينيكِ.

لترتفع ضحكتها فتزيد رونق جمالها قائلة:

ـ عشق! عشق من؟

ـ لا أعلم، لكنه بالتأكيد لست أنا.

ـ أعلم هذا بالتأكيد يا عزيزي.

لتتركه في بؤسهِ وحيدًا، فكلنا نعلم أنه يعشقها مثل البقية، لكن كرامته ترفض البوح بما هو بداخله، فتُكمل سيرها بجوار الورود والأزهار والابتسامة تشرق على وجنتيها كأنها الكوكب الدري، فكل شيءٍ تمر عليه تراه قد عاد مزدهرًا من جديد، لكن ما هذا الضوء شديد السطوع؟ فهناك ضوء قد ظهر عنوة دون أن نعلم مصدره، فلا تستطيع (أفروديت) أن تفتح عينيها من قوة هذا الضوء، ليخرج فجأة شيء غريب من هذا الضوء الساطع، شيء لا تستطيع أن تميز ملامحه، لكن لحظة! من هذا الشخص؟!

***

«يا الله، قلبي يخفق بالحرمان، قلبي معلق بأشياءٍ تكاد مستحيلة، قلبي ممزق كسحب السماء..

أما بعد..

فيا الله تلك هي فرصتي الوحيدة في النجاة من كل تلك الهموم فلا تخذلني، ابقَ معي ولا تتركني، أنت تعلم كل شيءٍ قد واجهته في هذا العالم المريب، تعلم كيف تفتت قلبي يا الله ولم تنقذه، رأيت ما حدث بي ولم تُطيب جراحي، صرخت لك أن تنتشلني من كل هذا ولم تفعل..

فقد ناجيتك بالدعاء يا الله ولم تستجب..

وناجيتك بالدمع يا الله ولم تستجب..

وأخيرًا أناجيك بالعزف يا الله ربما تستجيب.. حاجة في نفس عبدك لم يقضِها بعد، لم يفصح بماهيتها، ستظل غامضة حتى على نفسه..

عبدك تائه يا الله ولا يعلم في أي طريقٍ يمر، عبدك تائه يا الله ولا يستطيع فعل أي شيءٍ سوى أن يعزف جراحه المستكينة في قرارة نفسه، عبدك لم ينبس بنت شفه إلى أي مخلوقٍ آخر عما يدور في وجدانه وقلبه وخاطره..

فأنا أتراقص مع الحور على نغمات تلك الآلة مستعينًا بريعٍ يسبح بحمدك، وبرقٍ يلتقط لنا بعض الصور لأريها إياك يا مولاي، وأخبرك أنني سعيدٌ بالجنة وبما فيها من ثمار، لكنني ما زلت على أرضٍ لم تسقني إلى نعيمٍ قط ولا إلى راحةٍ قط، أنا أصفل بالجراح فقط والدموع يا الله..

فتضرعي يا الله سيكون بعد ذلك بالنغمات، فربما تطرب الملائكة وتوصل إليك دعائي أسرع من ذلك.

«أحد خلقك»

يغلق (عابر) كتابه "رسائل إلى السماء» وفي عينيه شيء من الفرح والحزن معًا، فبرغم حصوله على المفتاح إلا أن الحزن بداخله مستمر، فلا يعلم حتى الآن ما سبب هذا الحزن؟ وكأن هناك شخصًا بداخله يمنع الفرحة من الدخول لقلبه! لكن لا بأس فهو الآن يمسك عشيقته ويعزف عليها، فتلك الآلة أقرب له من أشخاصٍ كثيرين في حياته، ليشرع في العزف بتقاسيم على مقام الحجاز والصبا، ليدمع كل شيءٍ فيه حتى صوت آلته مستمعًا لتوبيخات والده من الخارج، فكلما يسمع والده صوت العود يصيبه الجنون، لكن (عابر) لا يهتم بأيةِ كلمة مما يقولها، فيستمر في العزف والتقاسيم حتى تهدأ روحه وعقله ووجدانه، ليذهب إلى فراشه وفي يده هذا المفتاح الذي عثر عليه أخيرًا، فيضعه في جيبه ويستلقي ليستعد إلى دخول عالمه الخاص والعثور على هذا العالم الجديد، هذا العالم الذي سيغنيه عن كل شيء.

وها هو يغمض عينيه ليفتح لنفسه بوابة عالمه الخاص، ويمر بهذا الممر الحلزوني من جديد بعد أن سمع تلك الأصوات المريبة واجدًا ذاته وسط زملائه المُسقطين، ناظرًا ومحدقًا بتلك البوابات

المعلقة في سماء هذا العالم، فيخرج المفتاح من جيبه ويُمعن النظر فيه قائلًا:

ـ لا أعلم إلى أي أرضٍ ستأخذني، لكن خذني بعيدًا عن هنا أرجوك.

ليجد فجأة شعاعًا ما يخرج من هذا المفتاح للسماء، فينظر (عابر) للأعلى ليجد أن هذا الشعاع متصل بإحدى البوابات، فيجد أن المفتاح يرتعش في يديه، ويحاول هو إحكام قبضته عليه حتى لا يهرب منه، فيحلق المفتاح بصديقنا إلى السماء فجأة ولا يعلم ما الذي عليه فعله حيال هذا، لكن في هذا الوقت كان قلبه يرتعد من الخوف، فيجد أن المفتاح قد أوصله إلى البوابة المرادة، فبمجرد أن وضع المفتاح بالباب ظهر ضوءٌ شديدٌ، فلم يقوَ على النظر إليه، ولا عقله كان قادرًا على تحمل كل هذا الضغط، ففقد وعيه بمجرد أن بدأ النور في الانتشار.

وما زال صديقنا فاقدًا للوعي ولا يشعر بأي شيء، جثة هامدة على أرضٍ لا يعلم مستقرًا لها، لكنه بدأ في استرداد وعيه على صوتٍ أنثوي جميل، صوت قادم من جنات الرب، صوت قد يرد الروح في أي جسدٍ قد فنيت روحه.

فيحاول (عابر) أن يفتح عينيه ليرى أين هو الآن، ليشرعهما ببطءٍ شديد ليجد أمامه امرأة ليست كأيةِ امرأةٍ قد رآها في حياته، فهي بكل النساء التي رآها في حياته، فجمالها وقدها المياس قادران أن يجعلا من أي شخصٍ كان عاشقًا لها.

يعتدل (عابر) لصاحبة الصوت احترامًا لجمالها، ناظرًا لها وقد نسى كل الكلمات التي يعرفها والحروف التي يزينها، لتقول تلك المرأة بدهشةٍ شديدة:

ـ من أنت؟!! ومن أين أتيت؟! وما هذه الملابس الغريبة؟!!

يظل (عابر) صامتًا ولا ينطق بحرفٍ واحدٍ احترامًا لهذا الجمال السرمدي، تعيد المرأة سؤالها من جديد قائلة:

ـ من أنت؟! ومن أين أتيت أيها الغريب؟!!

ليخرج (عابر) عن صمتهِ أخيرًا قائلًا:

ـ جميلة!

فتتعجب المرأة من تلك الإجابة قائلة:

ـ ماذا؟!!

ليجيبها وعلامات التبلد على وجههِ قائلًا:

ـ أنت جميلة، جميلة ككل أزهار تلك الحديقة، جميلةٌ كنجوم أخذت تزين السماء ببريقها، جميلةٌ كأول ابتسامةٍ تخرج من جوف دمعة، جميلة كفقيرٍ لا يملك من عشاء ليله سوى ابتسامة أطفاله وهم يأكلون، جميلة كأول قبلةٍ أُخِذت سهوًا، جميلة كرعدٍ يسبح وبرقٍ يخطف الأبصار.

لتنظر له تلك المرأة ولا تجد ردًا على كل تلك الكلمات الموجهةُ لها سوى أن تطلق لخجلها العنان وتصمت، لينتبه هو لصمتها قائلًا:

ـ حتى وأنتِ صامتة جميلة.

فيزداد احمرار وجنتيها أكثر وأكثر، فتحاول أن تتصرف بطريقةٍ طبيعية وتعود من رحلة الخجل تلك لتقول بصوتٍ خافتٍ ضعيف:

ـ من أنت؟!

ـ لا يهم، لا يهم من أنا، ما يهم هو من أنتِ بحق كل جميل؟!

ـ أنا.. أنا أفروديت، يدعونني أفروديت.

ـ أفروديت!! لقد سمعت بهذا الاسم من قبل، لكن لا يهم، فما يهم هو أنكِ أمامي وأرى في عينيكِ بريق الشمس.

لا تعلم ماذا تقول أو تفعل، لكن قلبها يخفق خفقانًا مسموعًا لمن يعشقه، ليكمل (عابر) مستفسرًا:

ـ ماذا بكِ؟ أرى أن نبضات قلبكِ تسابق أنفاس الصباح من سرعتها.

ـ لا شيء، ليس هناك أي شيء، أنا بخير تمامًا.

فُتن بها، ومن يراها ولا يُفتن بها؟ فهي من تَأسر القلوب ولا تُأسر، تُعشق ولا تَعشق، فبرغم أن الفرق في كلٍّ من الكلمتين هو التشكيل إلا أن الفرقَ في القلوب كبير، لكن الآن وقد انعكست الآية، فمن كانت لا تعشق في الماضي، الآن هي على وشك أن يطلق عليها لقب عاشقة، قلبها يخبرها بهذا، لكنها لا تعلم أن العشق لعنة، لعنة قد تُمرض صاحبها أبد الآبدين.

***

لقد وقع في الحب من جديد، لا يصدق هذا، لقد ظن أن قلبه أصبح كالأرض البور التي لا تُثمر ولا تُغني من جوع، لكن الآن هو يشعر بكل شيءٍ بداخله قد أصبح على قيد الحياة، كل شيءٍ بداخله يبتسم ويرقص وينشد، يريد إخبار الجميع أنه قد عشق من جديد، أن قلبه ما زال على قيد العشاق، يذهب لعمله والحماس ينطلق من عينيه، فهو في قصة عشقه تلك أكثر من ثلاثة أشهر، لا يعلمها أحدٌ غيره، لكن الجميع يريدون أن يعرفوا ما سر هذا التغير؟ ففي يوم وليلة أصبح هذا الشخص البائس شخصًا يحب الحياة ومبتسمًا دائمًا، شخص يريد أن يصافح ويحتضن الجميع، نعم يا عزيزي فالعشق ترياق لكل عاشق قد أصابه الجفاء.

يصل (عابر) إلى عمله والابتسامة تجتاح وجهه، وقلبه ينبض بالسرور، فلا ينسى في فرحهِ حق الله عليه في رسائله، ليخرج كتيبه الصغير شارعًا في الكتابة.

«يا الله، قد ناجيتك كثيرًا في الضراء ولكنت تسمعني وترسل ملائكتك في الكتب والنغمات والكتابة لتطيب خاطري..

فلا بُدَّ أن أناجيك في السراء حتى لا تظن بي أنني أدعوك في حزني فقط..

أما بعد، فيا الله.. قد خلقت لآدم حواء لتؤنس وحدته في الجنة، وقد جعلت لي امرأة تؤنس وحشتي في ظلمة هذه الدنيا الأشبه بجهنم، فابقها بجانبي رجاءً ولا تسلبها مني، فأنا مسنودٌ بها، أتولاَّ عليها، أرى منها كل شيء..

فلا ترسل لي ملائكة العذاب يا الله، فقد سئمت من عذابها النفسي لي، يكفي هذا الملاك أو تلك الحورية التي أرسلتها لي..

لكن لا أعلم يا الله لماذا ينقبض قلبي أحيانًا؟ يراودني شعور أن هذا الحلم الجميل سينتهي قريبًا، أن هذا الملاك سيُطلق مرة أخرى إلى أبواب السماء، ولن أجده مرة أخرى بين أضلعي، أشعر أن شيئًا ما بداخلي يمنعني من أيةِ فرحة تطل علي، من أي إحساسٍ بالسعادة، أشعر ولكأن الدنيا ستأخذ مني كل ما أملكه، حتى تلك الرسائل التي أرسلها لك يا الله..

لا تدعني..

أرجوك لا تدعني في كل تلك الظنون..

فأنا مستتٌ وهناك شيءٌ ما يعبث بداخلي ولا أعلم ماهيته.

«أحد خلقك»

ويضع القلم جانبًا محاولًا أن يُطمئن قلبه بأن كل شيءٍ سيظل بخير، أن كل شيءٍ لن يغيب ويرحل كما رحل كل ما سبق، لكن لا بأس، سيبقى كل شيءٍ على ما يرام، فيبدأ في كتابة مقالته التي ستُنشر في الجريدة مفكرًا في زفاف صديقه، فزفافه اليوم، لا يعلم هل هو أيضًا سيتزوج من يحبها مثل صديقه، أم أن هذا شيء من الخيال وحلم بعيد المنال؟لا يستطيع أن يخرجها من قلبه ولا يريد هذا، فهي من فرشت له الدنيا بالسعادة والفرح والسرور، فكل يوم يذهب لها في هذا العالم المليء بالسعادة، يذهب لها واضعًا قلبهً على يديه مقدمًا لها إياه، يريدها بجانبه طول الوقت، لا يستطيع أن يستغني عن تلك الشفاه التي تذوق فيها أنهار الخمر السرمدية، ولا عن ذلك العناق الذي فيه كل الأماني المحققة، ولا عن أي شيءٍ قد شهده مع تلك المرأة الخلابة.

***

دَنى فتدللت!

لم يكن يؤمن أن تكون هناك امرأة تخطف قلبه بهذا الشكل، لم يكن يشعر أن الحب قريب بهذا الشكل، من نظرةٍ واحدة لم يعد يمتلك قلبه، أحبها بطريقةٍ كان يتمنى أن يحبه أحدهم بها، تعلق بها تعلق الطفل بثدييّ أمه، لا يمكن أن يمر يوم واحدٌ دون أن يرى هذا الملاك المُنزَّل من جدران السماء، يجب أن يذهب لها كل يوم قبل أن يذهب لعمله وبعد أن يعود، فحياته قد تلخصت بالكاملِ فيها وفي ابتسامتها ونظراتها الشبقة، لا يعلم إن كانت تحبه حقًّا كما يحبها هو، أم أنها اعتادت على حبه وكلامه المعسول؟ هو لا يعلم أي شيء، فهي لم تُصرح بعد بحبها له، فبرغم كل ما حدث بينهما فهي لم تُصرِّح له بمشاعرها له بعد، تسمع منه وتصمت، لا تجيبه بأي شيء، وهذا الصمت يُشتت قلبه بالكامل، فلا يعلم أهي تحبه، أم أنها أحبت هذا الدَلال منه فقط؟ فبرغم عدم ربوبيته بين الآلهة إلا أن غزله لها لم يأتِ به إلهًا من آلهة أوليمبوس قط، لكن الغزل ليس كل شيء، بل الأفعال هي كل شيء، وهو يفعل ما بوسعه ليثبت لها أن كل خطوة تخطوها هذه الفاتنة يعشقها ويقدسها، كل همسة، كل نظرة، كل شهيق وكل زفير يخرج منها يتأمل لذته، أصبح مهووسًا بتفاصيلها، متيمًا بصوتها الصداح، ولا يستطيع أن يضع لعشقه هذا حدودًا أو أن يمنعه من الهرولة لها.

يعزف (عابر) على أوتار عوده من جديد، فقد تركه كل تلك الفترة التي كان يتمرن فيها على الدخول في حالة الإسقاط النجمي، ليعزف ألحان الشيخ إمام «أنا أتوب عن حبك أنا» بطريقةٍ مبهجة، بطريقةٍ تجعل الطيور تبني أعشاشها في القلوب، بطريقةٍ تجعل الأرض تهتز طربًا من تحته، بطريقةٍ تجعل أبواب الجنة تشرع أبوابها لروحه تلك التي تعزف، لم يكن يعلم أن الحب قادرٌ على كل هذا، لم يكن في خاطره أن يعزف بتلك الطريقة المبهجة يومًا.ليقاطع عزفه صوت هاتفه المحمول، فيجد صديقه (فهمي) هو المتصل، ليتعجب (عابر) من هذا الاتصال، فاليوم يوم إجازته وهو لم يعتَد على أن يهاتفه صديقه في يوم إجازته، ليجيب (عابر) قائلًا:

ـ مرحبًا يا فهمي، ماذا هناك؟! هل حدث شيء ما؟

ليضحك (فهمي) قائلًا:

ـ هكذا هي صباح الخير إذًا!

ليجيبه (عابر) والإحراج يملأ صوته:

ـ أعتذر يا صديقي، لكن لم أعتد أن تتصل بي يوم إجازتي.

ـ لا عليك يا عابر، أنا فقط كنت أريد أن أقدم لك عملًا ما.

ليرد (عابر) والتعجب يملأ صوته:

ـ عمل! أي عمل؟ أهناك عملٌ آخر غير الذي أنا فيه؟!

ـ لا لا، لا أقصد هذا، أقصد موضوعًا ما تكتب عنه، فرئيس التحرير لم يصله أي عملٍ لك منذ فترة، فقلت لنفسي أعرض عليك موضوعًا ما لتكتب فيه.
ـ أعلم أنني مقصر في العمل هذه الفترة، لكن أقسم لك أنني كنتُ منشغلًا بعض الشيء في مواضيع أخرى.
ـ لا عليك يا صديقي، أعلم أنك تحتاج للتأقلم مع هذا الوضع الجديد.
ـ إذًا ما هو الموضوع الذي كنت تريد مني الكتابة عنه؟
ـ هناك عرضٌ مسرحيٌّ يقام كل يوم في مسرح الطليعة بوسط البلد، أريدك أن تحضر هذا العرض وتكتب عنه؛ فهذا العرض عليه ضجة كبيرة، وأظن أنك تعشق الضجة.

ليضحك (عابر) من قول صديقه ليقول:

ـ حسنًا، سأحضر هذا العرض وأتمنى أن تكون تلك الضجة في موضعها الصحيح.
ـ أنتظر منك شيئًا عظيمًا يا صديقي.
ـ لا تقلق.

ليغلق (عابر) المكالمة وهو في قمة حماسه ليرى هذا العرض، فقد سمع بالفعل أن مسرح الطليعة منقلبٌ رأسًا على عقب

بسببه، ونهض ناهيًا عزفه ليقوم من مخدعهِ مغيرًا ملابسه مستعدًا لحضور هذا العرض.

***

يجلس (عابر) بمفرده متأملًا هذا الجمهور، ليجد كل حبيبٍ مع مُحبه، ويجد كل خِلٍّ مع خله، ويجد نفسه بمفرده، لكنها في قلبه، تدور في رأسه وتسبح في خياله.

ينتظر (عابر) أن يرى هذا العرض صاحب الضجة الكبيرة، فيبدأ العرض وفي يديه ورقة وقلم يكتب بعض النقاط التي سوف يحتاجها في كتابة مقاله، يتأمل كل المشاهد ويحفرها في ذاكرته، يشعر بكل شيءٍ قد قُدم على المسرح وكأنهم يرون قصته، ليجد عينيه تذرفان الدموع من هذا المشهد المؤثر، يجد البطل يحتضن البطلة منتظرًا منها أن تُقر بحبها له كما ينتظر هو تمامًا أن تُقر (أفروديت) له بحبها، تتسارع دموعه في الهبوط على أوراقه، فهو يعيش هذا العرض بأكمله، يشعر به لأن ما يدور على خشبة المسرح هو نفسه ما يدور في حياته، لكن الفرق هنا أن هذا تمثيل والآخر واقع.

ينتهي العرض وتنتهي معه دموع (عابر)، كان يتمنى أن يحضر مع (أفروديت) هذا العرض، كان يبكي لعدم تواجدها معه، فقد كان يريد أن يضمها لصدره فقط وتشاهد معه هذا العرض؛ لتعرف كيف كان يشعر حيال هذا المشهد الذي ذكَّره بها، فلا يجد أية وسيلة اتصالٍ ليتصل بمحبوبته، فلا يوجد هواتف في هذا

العالم الأثيري، ليعزم على أن يذهب لها الليلة ليخبرها بكل ما شعر به وما دار في قلبه الليلة.

يذهب لمنزله مسرعًا متلهفًا لهذا اللقاء، فقلبه يرفرف بين أغصان السماء يبتغي اللقاء، ليصل ويتأهب للدخول لعالمه الخاص –عالم الإسقاط النجمي– حتى يصل لتلك البوابة التي تنقله لحبيبته، ويدلف لها حتى يجدها أمامه وكأنها كانت تنتظر مجيئه، ليرتمي بين ضلوعها وتخرج منه أول كلمةٍ لها:

ـ أحبك، أحبك ولا أريد في الحياةِ سواكِ، أنت الشمس التي تشرق في سماء قلبي، أنتِ الهواء الطلق الذي يحرر قلوب السجناء، أنت من جعلتِ مياه قلبي عذبة بعد أن كانت مالحة، لقد جعلتيني أحب الحياة وأعشق أنفاسها.

لتصمت (أفروديت) ولا تعلم بماذا تجيب على هذا الكلام؟ أهناك من الأصل كلام ليجيب على هذا الكلام؟! إنها تلتزم بالصمت فقط، وقلبها يلتزم بالاضطرابات شديدة التقلب، تحاول أن تخرج عن صمتها، لكن ليس للسان حيلة، لينظر (عابر) لها قائلًا:

ـ لماذا كل هذا الصمت؟!

لتبادله (أفروديت) النظر مجيبة عليه وفي صوتها شيء من الاضطراب:

- وهل برأيك هناك ما يقال بعد الذي قيل؟
- لا أعلم، أنا فقط قلت ما بقلبي، لكنني لا أعلم ما بقلبك.

لتتبدل ملامح (أفروديت) وترتسم على وجهها علامات الحيرة، لينظر لها (عابر) متعجبًا ليُكمل قائلًا:

- ماذا بكِ؟! لمَ تبدلت ملامحك؟
- أشعر أنني أظلم قلبك معي.
- وإن يكن! فالظلم في قلبكِ أكبر عدل، وأنا لست على عجلةٍ من أمري، أنا سأنتظر العمر بأكمله لتتأكدي من حبك لي.

لتجيبه (أفروديت) بملامح باردة:

- وإن لم يكن الذي بداخلي لك حبًا، ماذا ستفعل حينها؟

ليتبدل وجه (عابر) للعبوس، لا يستطيع أن يتخيل حياته بدون حبها، لا يستطيع أن يحيا دون أن يستنشق أنفاسها كل صباح، علَّمته كيف يعيش، لكن حديثها معه الآن يسلب منه تلك الهبة، يحاول (عابر) السيطرة على حزنه قائلًا:

ـ لن أفعل شيئًا بالتأكيد، لن أفعل أي شيء، سأضطر فقط للبكاء والمكوث وحيدًا والكتابة عنكِ، هذا كل ما سأفعله.

لتنظر له (أفروديت) وعيناها مليئتان بالعطف الشديد المصاحب بالشفقة على هذا العاشق المسكين، لتقول له وصوتها يرتجف:

ـ لا تقلق، لن تبكي ولن تمكث وحدك، فأنا بجانبك يا حبيبي.

فغر فاه (عابر) مندهشًا لما سمعت أذناه، ليقول وصوته يرقص من السعادة:

ـ ماذا قلتِ؟!

لتشعر (أفروديت) بالخجل الشديد لتجيبه قائلةً:

ـ قلت إنني بجانبك.

ـ لا لا، لا أقصد تلك الجملة بل التي بعدها.

لتسترق (أفروديت) النظر للسماء هاربة من عينيه قائلةً:

ـ أتقصد يا حبيبي؟!

ليحلق (عابر) من السعادة فرحًا مما طربت له أذناه، ليمسك يديها قائلًا بصوتٍ شجيّ:

ـ حقًّا! هل أنا حبيبك حقًّا؟

ـ أيوجد أحد غيرك هنا؟

- لا.
- إذًا فأنت حبيبي حقًّا.

لترتسم على شفتيه ابتسامة رضا لما سمع، وكأنه كان ينتظر أن يسمع شيئًا من هذا القبيل، ليتوسد صدرها قائلًا:

- أتعلمين؟! كنت أود مجيئك معي لذلك العرض المسرحي، كنت أفتقدك كثيرًا، وكنت أريدك أن تشاركيني تلك المشاعر التي شعرت بها حيال هذا العرض، كنت أود هذا بشدة.

لتملس هي بيديها على رأسه قائلة:

- أتعلم، وأنا معك لا أشعر بأنني من ضمن آلهة جبل أوليمبوس، أشعر كأنني بشرية مخلوقة، أشعر بشيءٍ لم أشعر به قط، وكأنك جئت بفأسٍ وحطمت ربوبيتي.
- وهل هذا الشيء جيد بالنسبة لكِ أم لا؟

لتصمت قليلًا ثم تجيب قائلةً:

- لا أعلم، حقًّا لا أعلم، وأنا معك لا أعلم أي شيء، لكن هناك شـ...

ليقوم (عابر) بالتقاط شفتيها في جوف شفتيه دون أي استئذانٍ منه، استباح حرمة شفتيها دون أيةِ إشارةٍ منه، وهي!! هي في وضع الاندهاش، لا تعلم ما الذي يجب عليها فعله سوى أن

تبادله القُبل، ليقوم هو ويعتليها وتبدأ بينهما معركة يقسم كل منهما على أن يجعل الآخر يرفع راية الاستسلام، لكن هيهات، هيهات.

***

ـ لم أتوقع أن الخطة ستنجح بتلك السهولة.

تخرج تلك الجملة من فم (هيرا) لـ (أثينا) والفخر والعظمة يملآن صوتها، وكأنها هي من فكر وقدر لتلك المشيئة، تريد أن تتخلص من (أفروديت) بأي ثمن، وكأن هناك ثأرًا يجب أن يُأخذ منها، فتُجيبها (أثينا) بنبرة تفاخر؛ فإنها العقل المدبر واللسان الحكيم الذي ألقى هذه الفكرة لتقول:

ـ بمجرد أن تكتمل الخطة لن يكون لاسمها وجود في أرجاء هذا الكون، لكنني لم أظن أن يفكر زيوس هكذا، يا له من داهية!

ـ أنا أيضًا لم أظن أن يفكر زيوس بتلك الطريقة، لكن هذا الأمر قد حدث بالفعل، لكن لا أعلم، لا أظن أن أفروديت تحب هذا الشاب.

لتبتسم (أثينا) ابتسامةً يشوبها الخبث قائلة:

ـ وهذا هو المطلوب جلالتك.

لتنظر (هيرا) إليها نظرة استغرابٍ لتقول:

ـ هذا المطلوب؟! كيف هذا؟! أنا لا أفهم!!

- الحيرة جلالتك، يمكن لحيرة القلوب أن تُطفئ كل شيءٍ من حول صاحبه، ستذبل بفعل هذا الشعور، ستصبح رمادًا عما قريب مع تلك الشخصية الازدواجية، عدم تمييز الشعور الداخلي يؤدي إلى تيه صاحبه وشتات أفكاره ودمار أحاسيسه.

تتسع تلك الابتسامة الخبيثة على وجه (هيرا) قائلةً:

- تفكير عظيم جلالتك، وأتمنى حقًّا أن يظل هذا التيه موجودًا في قلبها، حتى لا نرى لها وجودًا مرة أخرى إطلاقًا.
- قريبًا جلالتك ستسمعين خبر فنائها من هذا الملكوت، قريبًا جدًّا.

يزداد اتساع تلك الابتسامة على وجه (هيرا)، فالغيرة يا صديقي يمكنها أن تجعل أيةَ امرأة كالنار المشتعلة، يمكن أن تسوقنا الغيرة إلى أفعالٍ تُسبب لنا الحسرة والندامة فيما بعد!

تدخل عليهما خادمة من البشر لا يقل جمالها عن جمال الآلهة، ووجودها هنا بأمر كبير الآلهة (زيوس)، وتعاملها (هيرا) أسوأ معاملة بسبب جمالها الخلاب ورغبة (زيوس) في بقائها خادمة للآلهة ولرغباته الشهوانية بالتأكيد، وهذه الخادمة تحاول أن تسترضي الربة (هيرا) لتتحسن معاملتها معها، فدخلت إليهما والابتسامة تجتاح ثغرها لتقول:

ـ عذرًا جلالتكما، عندي بعض الأخبار التي يمكنها أن تدخل السرور على قلب مولاتي هيرا.

لتشيح (هيرا) بإصبعها آذنةً لها بالحديث، لتقول تلك الخادمة:

ـ قد سمعت من إحدى خدام الربة أفروديت، أن أفروديت تعاني من سقم شديد، والسبب غير معلوم، أرجو أن يكون خبري هذا قد أدخل السرور على قلب جلالتك.

ـ ارحلي أنتِ الآن!

لتخرج الخادمة الحسناء من الغرفة وابتسامة الفرحة على وجه (هيرا)، وكأنها قد سمعت خبر انتهاء صراع طروادة، لتلتفت إلى الربة (أثينا) قائلة والسرور يظهر على وجهها:

ـ أتعلمين معنى هذا؟

لتجيبها (أثينا) والتفاخر في صوتها:

ـ بالتأكيد أعلم، اكتسبت أفروديت أخيرًا صفاتٍ بشرية من عشيقها الجديد، ستُفنى كأي بشري عما قريب.

لتصمت (هيرا) برهة لتفكر في كل تلك الأحداث، ثم تخرج عن صمتها بصوتٍ تملؤه الحيرة:

ـ لكن كيف؟! كيف اكتسبت تلك الصفات وهي لم تحب ذلك البشري اللعين بعد؟

ـ قلت لكِ جلالتك أن الحيرة والتيه يمكنهما أن تفعلان بالقلوب الكثير والكثير، وهذه صفاتٌ بشرية، تعلمين هذا بالتأكيد.

ـ لا أصدق أنها ستصبح من الفانين قريبًا.

تجيبها (أثينا) وصوتها يحمل شيئًا غريبًا:

ـ بل صدقي جلالتك صدقي.

***

لا تعلم ما الذي أصابها، وكأنها تحمل صخرةَ سيزيف على عاتقها لتصعد بها إلى قمة الولع ولكنها لا تستطيع، هناك أمرٌ غريبٌ في قلبها، ألمٌ تحمله بين ضلوعها ولا تعلم سببه، هناك إحساسٌ مريبٌ بداخلها لم يطرق لها بابًا من قبل، إنها مجهدة، منهكة، ذابلة ليست كما كانت قديمًا.تجلس (أفروديت) في حديقتها الخاصة والشحوب والوهن يملآن ملامحها، تنظر كعادتها للسماء وكأن هناك حديثًا ما يدور بينهما، لنجد (إروس) يقاطع هذا الحديث قائلًا:

ـ أرى الحزن في حديثك للسماء، ألن يرحل الحزن عنكِ كما ترحل الشمس من سمائها؟

توجه (أفروديت) النظر إلى المتحدث لتجده (إروس)، فترتسم على وجهها شبح ابتسامةٍ مجيبةً عليه قائلة:

ـ ألن تكف عن ملاحقتي يا إروس، ألم تسأم؟

لتخرج من جوفه ابتسامة يملأها الحزن والشجن ليقول:

ـ أقسم بجمالك أنني لا أقصد ملاحقتك، أنا أجدكِ في طريقي كما النسيم في كل مكان.

ـ أنا أمزح، اجلس إن أردت.

ـ بالطبع أريد، فالجميع يتمنون مجالستك.

ويجلس (إروس) في حضرة (أفروديت) ناظرًا لها بتأملٍ شديد قائلًا:

ـ أرى أن العشق قد دب في حصون مملكتك، إذًا من هو سعيد الحظ يا تُرى؟!

ليرتسم الفتور على وجهها مجيبة:

ـ تقصد تعيس الحظ جلالتك، إنه أتعس مخلوقٍ في هذا الكون.

ليتعجب (إروس) مما سمع قائلًا بصوتٍ تملؤه الغيرة:

ـ مخلوق! أهو بشري؟! كيف هذا؟! من هو هذا؟

ـ لا يهم يا إروس، لا يهم، ما يهم هو أنني أشعر بالذنب حيال هذا الضعيف.

ـ أي ذنب؟ ما الذي تتحدثين عنه، أهذا الذنب هو العشق؟

لتجيبه بفتورٍ شديد:

ـ ليس عشقًا، أنا لم أعشقه، لكنني أريده، أريده وأريد أن يبقى بداخلي، لا أعلم ما هو تصنيفه بداخلي،

لكني أحتاجه بشدة، في أوقاتٍ ما لا يغيب عن بالي لحظة واحدة، وأوقاتٍ أخرى لا يمر في بالي مجرد المرور، أنا لا أعلم، حقًّا لا أعلم!

ـ هناك إحساس ينقص جلالتك، هناك شيء ما يمنعك من الوصول لبرزخ العشق.

ـ أتعلم؟ في أوقاتٍ أشعر أنه شخصٌ آخر، ليس هو من يحبني، يأتي بغرضه الشهواني، ثم يرحل دون أي كلام.

ليقاطعها (إروس) قائلًا بتعجبٍ شديد:

ـ وكيف تمكنينه منكِ ولا يوجد في قلبكِ شيء؟!

ـ لا أعلم يا إروس! أقسم لك أنني لا أعلم، أنا مرهقة من هذا الشيء، أريده ولا أريده، هل أنا عاهرة يا إروس؟

لينظر لها الإله (إروس) صامتًا، لا يجد لها أي ردٍ يرضيها به، أيرضيها أم يبحث عن أحدٍ يشفق على حاله؟ فهو أيضًا من عاشقيها لكنه يخفي هذا الشعور، يرغبها بشدةٍ على قدر عدم رغبتها به، ليحاول أن يخرج عن صمتهِ ليقول:

ـ أنا أيضًا لا أعلم.

لتجيبه بصوتٍ منكسر:

ـ لا لا لا، قلها، قلها جلالتك، قل إنني عاهرة، قلها!

وينهض (إروس) من مجلسه ذاهبًا والحزن والانكسار يملآن جوفه، الألم يعتصر قلبه عصرًا، مبتعدًا عنها وهو يردد بينه وبين نفسه:

ـ إنكِ عاهرة!

ليتركها والعِلل قد تكاثرت عليها أكثر وأكثر، لا تستطيع أن تُحدد ماهية هذا الإحساس الغريب، لا تفهم ما الذي يدور في ملكوت قلبها، تفتقده حينًا وتنساه في الحين الآخر، لا تريد أن تعطيه شيئًا منها وتسلمه جسدها وقت اللقاء، لا تفهم إلى متى سيستمر هذا الشعور بالحيرة؟ لا تدري ما سبب كل هذا التيه؟ فتبًا للعشق وتبًا لمن اتبعه وتبًا لمن كان يريد اتباعه!

يشعر بوخزةٍ غريبة في داخلة، يشعر بأنه طُعن في إلهيته، فكيف لهذا البشري أن يكتسب تلك المكانة عند (أفروديت) وهو الإله (إروس) لا يكتسب أية مكانة في قلبها الخفاق بالحزن، يشعر بغضبٍ كبير في داخله، لا يعلم كيف ينفس عنه، ليتحول لطائر الصقرٍ هابطًا إلى أهل الأرض ليعلم ما يدور بين البشر، ليستقر على أغصان شجرة تخص أحد الفلاحين الفقراء، لينصت إلى حديثهم، ليجد رجلين يحصدان غلة هذا الموسم ويتسامران في الحديث، يُسليان نفسيهما بالحديث، لنجد أحدهما يقول وهو يحمل في يديه منجلًا يحش الغلة وعيناه تنظران للسماء:

- ما لي أرى السماء كاظمة اليوم؟! أرى فيها حزن الآلهة!

ليجيبه الرجل الآخر وهو مندمج في حصاد المحصول:

- وهل الآلهة تحزن يا أحمق؟! إنهم آلهة، لا تحزن، لا تبكي، لا تتألم مثلنا، إنهم ينعمون بحياة.. حياة! لا لا.. إنهم يتمتعون بالخلود، يا ليتنا كنا في حضرة خدمة الآلهة في قصورهم.
- لا أظن هذا يا صاح، لا أظن هذا، فالسماء تحمل بكاء الآلهة، أرى هذا.

ليسخر الرجل الآخر من صديقهِ ويقول بسخريةٍ:

- أتصدق أنت أيضًا ما يقوله باقي العامة؟

لينظر الرجل لصديقه متعجبًا ويقول:

- أصدق ماذا؟! وما الذي يقوله العامة؟
- يقولون أن الربة أفروديت قد أحبت بشريًا وهي عاشقة سقيمة بحبه، فظننت أنك تتحدث على أساس ما يقوله الناس.
- وماذا يقولون أيضًا؟
- يقولون أن سبب وقوع الربة أفروديت في عشق هذا البشري هو كبير الآلهة، الإله زيوس العظيم.

- ولماذا يفعل كبير الآلهة هذه الفعلة؟! هل غضب على الربة أفروديت؟
- أظن هذا، فقد سمعت أنه علق قلبها ببشري كنوع من العقاب، لا أعلم لماذا ولا يقول أحد سبب هذا العقاب.
- ومن هذا البشري؟ هل هو من قريتنا أم من القرى المجاورة؟
- كي لا أكذب عليك أنا لا أعلم، لكن هناك من يقول أنه من قريةٍ بعيدة عن هنا، والبعض يقول أنه من عالم آخر.

ليقول الرجلُ بتعجبٍ شديد:

- عالم آخر! كيف هذا؟!
- لا أعلم صدقني، أنا أقول لك ما سمعته من العامة، وأن عشقها لهذا البشري سيكون سر فناءها بكل تأكيد؛ لأنها تتسم منه بعض الصفات البشرية.

ليصيح الرجل في وجه صديقه:

- لا وعظمة زيوس أن كل هذا لترهات، اُحصد اُحصد ولا تتفوه بمثل هذه الترهات مرة أخرى! هيَّا احصد.

ليكمل الرجلان حصاد تلك الغلة، ولينصدم (إروس) مما سمع وعقله لا يستطيع أن يصدق كل ما قيل، ليقول لنفسه:

ـ يا للهول! يجب أن أفعل شيئًا حيال هذا الأمر، لكن كيف أتمرد على مشيئة كبير الآلهة، لكن لا بُدَّ أن أفعل شيئًا ما، لن أقف مكتوف الأيدي هكذا!

ليحلق الإله (إروس) إلى السماء من جديد، ويلتفت الرجل الأول لصوتٍ ما، ويوجه الكلام لصديقه قائلًا:

ـ أسمعت هذا الصوت يا رجل؟!

فيصمت قليلًا ليجمع حواسه مخبرًا إياه:

ـ لا، لا أسمع أي صوت.

ـ لا أعلم! خُيِّل لي أنني قد سمعت صوتًا ما!

ليقول الرجل الآخر ساخرًا:

ـ ربما هو صوت الآلهة أيها المهووس!

فينظر له الرجل الآخر نظراتٍ تحمل الاشمئزاز من هذا الساخر الكبير، ويدعه يُكمل نكاته السخيفة مكملًا وحده حصاد المحصول.

***

لا تنتظر من هذا العالم أن يطيب خاطرك..
فهذا العالم هو من كسر خاطرك وقلبك، فخذها قاعدة..
من يكسر لا يُطيب، وما كُسر لا يطيب يا صديقي.

***

يجلس على الطاولة لا يفعل أي شيءٍ سوى أنه مبتسم، سعيد بأن صديقة المقرب أخيرًا يدخل عالم الاستقرار، ولكنه لا يعلم هل هو أيضًا سيدخل هذا العالم أم ماذا؟

ليقوم ويحتفل مع صديقه حتى جاء موعد رقصة الأحبة، تلك الرقصة التي يحتضن فيها كل مُحبٍ حبيبه علانيةً، ليجتمع العاشقين راقصين على أنغام هادئة، ليعودَ هو إلى طاولته وحيدًا، فمحبوبته في عالم آخر الآنَ، ففي هذا الوقت يذهب لها ليأخذها بين ذراعيه، لكن زفاف صديقه لن يأتي مرة أخرى، هي مرة واحدة في العمر.

ينظر لهم وهم يتمايلون مع الألحان ومحبوبته تسبح في خياله، يتمنى وجودها الآن ليأخذها بين ذراعيه، شاردًا في التفكير فيها، ليلقي نظرةً على الحاضرين والابتسامة على وجههِ ليجدها بينهم!

لا لا، لا بُدَّ من أنها تشبهها فقط، لكن هذه لا يوجد لها شبيه، إنها نسخة واحدة فقط، إذًا فمن هذه الحسناء؟!ليجد هذه الحسناء تقترب منه ليجدها بالفعل هي (أفروديت)، كيف أتت إلى هنا؟! لا يصدق أنها بالفعل تقف أمامه الآن! هل يتخيل أم ماذا؟! فهو ينظر لها وهي تقترب منه برداءٍ يبوح بصرخات أنوثتها، حتى جلست بجواره على نفس الطاولة ونظره معلقٌ بها لم يطرف عنها طرفة عينٍ ليقول:

ـ أهذه أنتِ بالفعل؟!

لتجيبه ضاحكة:

ـ لا أظن هذا.

ـ لا لا، رجاءً هل هذه أنتِ بالفعل؟! لست أتخيلك صحيح؟!!

لتتعالى ضحكاتها فتذيب قلبه العاشق لها قائلة:

ـ لمَ لا تصدق أنني أمامك الآن أيها المجنون؟!

ـ ربما لأننا من عالمين مختلفين مثلًا!

ـ لكن قلبينا في عالم واحد، ألم تتمنى أن أكون معك الآن كما تمنيت أنً أكون معك في هذا العرض الذي حضرته بدوني؟

ـ بالتأكيد تمنيت هذا، أنا أتمنى وجودك في كل مكانٍ أخطو به، لكن هل تحبينني إلى تلك الدرجة لكي تأتي لي في هذا العالم التعس؟!

لترتبك (أفروديت) فتغير الحوار مسرعة، فقلبها ما زال في حيرةٍ من أمره قائلة:

ـ عالمكم غريبٌ للغاية، مزدحمٌ جدًّا، وترانيم الزفاف عندكم مبهجة للغاية، ماذا تطلقون عليها؟

ليبتسم لها ممسكًا بيديها مُقبلًا إياها بكل حنانٍ عالمًا أنها تهرب من إجابة سؤاله، فيقوم ممسكًا بيديها قائلًا:

ـ هل تسمحين لي بهذه الرقصة؟

لتقول بارتباكٍ ملحوظ:

ـ بالتأكيد.

ليقوم بها إلى حلبة العاشقين يتراقص بين ذراعيها وكأن الله قد استجاب لرغبتهِ أخيرًا، ليتمايل ويتراقص بين أضلع هذا الملاك المرسل من العدم، لا يعلم كيف جاء إليه لكنه قد أنقذه من وحشة الوحدة، هامسًا لها وهما يتراقصان قائلًا:

ـ تبدين في غاية الجمال في هذا الفستان.

ـ حاولت قدر المستطاع أن أندمج مع عالمك بتلك الملابس، فلا يمكن أن آتي إلى هنا بصورتي الربانية.

ليقول لها والناس تنظر من حولهِ بتعجبٍ شديد وهو لا يستطيع أن يزيح عينيه عن عينيها النضرتين:

ـ أنا أقبلك بأيةِ صورة يا جميلتي، انظري من حولك كيف يتعجب الكل من جمالك الصداح، لا أظنهم مؤمنين بوجود هذا الجمال البديع في ذلك الملكوت الفسيح.

تبتسم إثر قوله ولا تستطيع أن تنظر له من شدة الخجل الساقط عليها كالرطب، لكن برغم كل تلك الفرحة تشعر بداخلها أن هناك شيئًا ما غير كامل، هناك إحساس ما ينقصها لتشعر بشغفها نحوه، تشعر بالذنب الكبير حيال مشاعرها الناقصة تلك، تحاول أن تعثر على هذا الفقدان لكنها تفشل في كل مرة، تعلم أنه يعشقها لا

يحبها فقط، فبداخل هذا الفتى إحساس أكبر من الحب بكثير تجاه تلك الفاتنة.

صامتة ولا تعلم ما الذي يجب أن تقوله لتلك المغازلات الصريحة، لا تجد ردًا سوى الخجل والصمت، ليقول لها بلسانهِ رغم أن قول عينيه أبلغ بكثير:

- أتخجلين؟
- ومن يسمع تلك الكلمات ولا يخجل؟!
- كيف؟! كيف تخجلين وأنتِ في عينيَّ كالقمر الساطع الذي يمر أمام الشمس ليملأ الكون كله بخجلها من جمال القمر يا قمري.
- كُف عن هذا.

ليقول لها بتعجبٍ شديد:

- عن ماذا؟!

لتنظر له نظرة يملؤها الخجل قائلة:

- أنت تعلم عن ماذا.

لتخرج منه ضحكاتٍ متعالية حابسًا إياها بين أضلعه مكملًا الرقص معها، والملأ من حوله يرمقونه بنظراتٍ غير مفهومة، بها أسئلة تبحث عن إجاباتٍ كثيرة، لكنه لا يعيرهم أي انتباه، فهو يسبح الآن في قلب محبوبته، والعاشق لا يريد من تلك الدنيا سوى أن يسبح في قلب محبوبته وبين أضلعها فقط.

***

الوحدة..

هو هذا الشعور السخيف الذي تشعر به في آخر كل يوم..

هذا الشعور الذي يصور لك أنك شخصية منبوذة بين الناس، تشعر كأن روحك تحترق بمجرد أن ترى مجموعة من الأصدقاء يتسامرون أو حبيبين يتغنجان بصيحات الحب..

هذا الاحتراق الداخلي ليس ضغينة، بل فقدان إحساس أنه مرغوب فيك، يشعرك بنبذك في هذا العالم.

***

رغم سلطانه على كل شيء، إلا أنه يشعر بأن هناك شيئًا بداخله يتحكم فيه، شيء لا يعلم ماهيته، لكنه لا يبالي بكل هذه المشاعر، كلمة مشاعر من الأصل ليست موجودة في قاموسه، هو شخص لا يعلم معنى الإنسانية فأصبح كأعجاز النخل الخاوية.

يرتشف (حمزة) قهوته في إحدى المقاهي الموجودة في منطقة وسط البلد، يتأمل المارين وكأنه يرسم في باله خطة ما، أم أنه ينتظر أحدًا ما، لا أظن هذا، فتلك الشخصية لا يمكن أن يكون لديها أصدقاء أو معارف، فإنه كالزرع الشيطاني.

ينهي (حمزة) قهوته ويقوم متجهًا لسيارته بعدما حاسب القهوجي ذاهبًا لمنزله ليمارس عادته المفضلة، ويذهب لمصدر رزقه الخبيث، يقود السيارة بسرعةٍ جنونية، وكأن الشارع ملكٌ له

وحده، لا يعبأ بأي شخصٍ يقود بجانبه، ليجد أمامه تكدسًا مروريًّا وليس هناك فرصه لتفادي الاصطدام بإحدى السيارات الموجودة في ذلك التكدس، فيصطدم بسيارةٍ حتى يتحطم الجزء الأمامي من السيارة، فيسب ويلعن هذا التكدس كأن هذا الزحام هو السبب في ما حدث، وليس سرعته هي السبب، مكملًا سيره حتى أصبح تحت منزله، ليصعد له في هدوءٍ تام دالفًا لغرفته وهو ينظر لكل ركنٍ فيها، وكأنها أول مرةٍ له يدخل تلك الغرفة!

يستعد للذهاب إلى عالمه الخاص، يريد أن يبحث عن هذا العجوز الذي دله على هذا المفتاح ليشكره على هذا الكنز العظيم الذي جاء له في هذا الوقت المميز، فهذا الكنز هو أعظم شيءٍ قد حصل عليه لتفريغ طاقته الشهوانية فيه.

يدخل (حمزة) لعالمه بكل سلاسةٍ باحثًا عن هذا العجوز الذي أرشده على مكان هذا الكنز العظيم، فجمال تلك المرأة يعد كنزًا بالفعل، يبحث هنا وهناك ولا يجد ذلك العجوز، يستسلم ويذهب ليرى كنزه السرمدي، لا يستطيع أن يكف عن الذهاب لها، قد نسى كل شيءٍ وزاغ بصره عن استغلال الأغنياء مستغلًا ضعف قلب تلك المسكينة رغم قوتها، فهي من تسخر القلوب لعشقها وتجعل من العشاق قلادة تتدلى على صدرها.

بمجرد أن دلف لبوابة هذا العالم لم يجدها أمامه مباشرةً، فقد اعتاد أنه بمجرد دخول تلك البوابة يجدها أمامه مهيئة له بزينتها

الكاملة، ويقوم هو بالانقضاض عليها كانقضاض الليث على الشاه، لكنه لم يجدها في تلك المرة متعجبًا من هذا، ليبحث عنها بين تلك الأشجار الكثيفة لكنه لا يجدها، يبحث عنها بين خبايا ذلك العالم ولا يجدها أيضًا، لكن لحظة! من هذا الذي يسير بخطواتٍ ثابته متباهية؟ يدقق (حمزة) في وجه هذا الشخص ليجده هو العجوز الذي أرشده لهذا العالم الأسطوري، لكنه لا يرتدي تلك البذلة القديمة، ولا يتكئ على عصاته البالية، فهو يرتدي ملابس الملوك والسلاطين في هذا العالم، وخطواته تدل على أنه سيد سادات هذا الكون أو أنه سلطان السلاطين، لكنه لا يعلم أنه كبير الآلهة (زيوس) العظيم، ليذهب له مهرولًا ليعلم أين ذهب كنزه السرمدي مناديًا:

ـ أيها العجوز، يا هذا قف أريد محادثتك.

ليلتفت كبير الآلهة لهذا الصوت الهزيل:

ـ ماذا تريد يا هذا؟!

ويخرج صوت من العدم لا نعلم أين مصدره قائلًا:

ـ كيف تحدث كبير الآلهة هكذا أيها الفاني؟!!

لتنبت من الأرض نباتات تشبه الحبال لتقيده وهو واقفٌ مكانه، مقيدة يديه وقدميه وتلتف حول عنقه، لا يستطيع أن يحرك أي شيء فيه، ولا حتى أن ينبس ببنت شفه، لينظر له الإله (زيوس) نظرة سخرية قائلًا:

ـ عن ماذا كنت تريد أن تحدثني؟ قل!

لتتعالى ضحكات (زيوس) في أرجاء المكان، ونجد الأرض تهتز من تحت (حمزة)، لكن (زيوس) يقف ثابتًا ليكمل الحديث قائلًا:

ـ أتريد أن تسألني عنها؟ عن كنزك الأنثوي؟

لتتعالى ضحكاته أكثر وأكثر وتتعالى مع ضحكاته تلك الهزة الأرضية البسيطة، ولا يستطيع (حمزة) أن يفتح فمه من هول هذا المنظر المرعب، فكل طاغية له مرحلة معينة يصل لها وبعدها يتم الطغيان عليه، ليصيح (زيوس) فيه قائلًا:

ـ صحيح!

ليومئ (حمزة) برقبته علامة على إجابته بـ»نعم»، وكأن القطة قد التهمت لسانه البليغ هذا، ويرد عليه (زيوس) بكل سلطانٍ وعظمة:

ـ كنزك هذا أيها الفاني، سيرحل ويفنى عما قريب، لكن أريد أن أشكرك وأحل عليك بركاتي لتنفيذك للخطة المقدرة.

فينظر له (حمزة) بتعجبٍ شديد من واقع ما سمعه من كبير الآلهة (زيوس)، لا يعلم عن أيةِ خطة يتحدث، ولا عن أي شيء يبوح، يكمل (زيوس) بعد أن لاحظ علامات التعجب على وجه هذا المسكين ليكمل قائلًا:

ـ نعم، فأنت كنت مجرد أداة للتخلص من مصدر إزعاج كبير بالنسبة لجبل أوليمبوس، لقد أنهيت دورك في هذا العالم، أرجو ألا يخطو طيفك هنا مرة أخرى في عالمي.

ويعطي (زيوس) ظهره لهذا الضعيف تاركًا إياه، ويصيح (حمزة) فيه قائلًا:

ـ لاااا، لن أرحل قبل أن آخذ كنزي معي أيها العجوز وإلا...

فيلتفت (زيوس) له مقاطعًا إياه بغضبٍ شديد حتى تكثر السحب في السماء ويتكاثر الضباب وتهطل الأمطار بغزارةٍ فجأة، وصوت الرعد يرعب القلوب، والبرق يخطف عيون الناظرين، قائلًا بغضبٍ شديد:

ـ وإلا ماذا أيها الفاني؟!

فيبتلع (حمزة) ريقه بصعوبةٍ شديدة قائلًا والخوف يملأ صوته:

ـ وإلا سأقتل من يقف أمامي.

وينظر له (زيوس) بحدقتين ضيقتين وتظهر ابتسامة على ثغره، لتتسع تلك الابتسامة حتى تصير ضحكات تعلو وتعلو – ضحكات متقطعة مريبة– ناظرًا له (حمزة) بارتيابٍ شديد، لا يعلم ما الذي سوف يحدث، لتختفي تلك القهقهة المريبة ويحدق به

(زيوس) بغضبٍ شديد، ويرفع يده اليمنى إلى السماء موجهًا بنصره لها، لنرى برق السماء كلها يستقر في إصبع كبير الآلهة في مشهدٍ مرعب للغاية أمام هذا الضعيف المقيد، ويوجه (زيوس) إصبعه تجاه هذا الضعيف ليخر صريعًا مصابًا بصدمات البرق تلك.

ينظر (زيوس) له باستعلاءٍ كبير وهو ملقى على الأرض صريعًا ليقول له:

ـ قلت لك أن دورك قد انتهى أيها الـ...!

ولم يكد يكمل كلماته تلك حتى تفاجأ زيوس بأن جسد هذا الصريع قد اختفى، تبخر تمامًا وليس له أي أثرٍ نهائيًا، فيحاول (زيوس) أن يفهم ما الذي حدث الآن؟ فما حدث خارج سلطته الإلهية، ويقرر أن يرحل من هذا المكان المريب ليفهم ما الذي حدث بينه وبين نفسه.

***

ستتوارى الأيام وتمر السنين..ويصبح كل شيءٍ ذكرى مضت.. كذكرى الشتاء في الصيف، وذكرى الصيف في الشتاء، كل منهما يشتاق إلى الآخر لكنهما لا يلتقيان..

كذلك الماضي والحاضر، هناك شيء ما يفصل بينهما يسمى الذكرى، فما يترتب على الماضي ينتج منه الحاضر والمستقبل فلا تدع أيةَ ذكرى تُعكر صفوك..

كُن كالسماء..

فالسماء لن يصل لها أحدٌ ليعكر لونها الأزرق الخلاب ويجعله أرجوانيًا مثلًا أو يتسلل لها ليلًا ليجعلها خضراء، فلن يقدر أي شخصٍ أن يغير طبيعتها، إذًا كُن مثلها..

كنْ بعيدًا!كن بعيدًا عن هؤلاء الأشخاص الذين يتمتعون ويتلذذون بتغيير الطبيعة الهادئة بداخلك..

كن بعيدًا عن أي شيءٍ سيغير إحساسك الداخلي..

كن بعيدًا فقط..

فقط بعيدًا كُن!

***

يقوم (عابر) من نومهِ مفزوعًا وكأن كابوسًا ما قد راوده أو أن ثعبانًا ما قد لدغه، فهب من الألم، لا يتذكر حتى ما هذا الكابوس الذي كان يشاهده، لكنه يشعر بانقباضٍ في صدره، ولا يعرف ما طبيعة هذا الإحساس أو لماذا قد جاء لهً عنوة هكذا؟ لكن لا بأس، سيرتشف بعض الماء ويقوم من مخدعه ويكمل يومه الطبيعي في هدوءٍ شديد وكأن شيئًا لم يكن، فإنه مجرد كابوس ليس إلا.

ينتهي (عابر) من حمامه وفطوره ليهندم ملابسه مستعدًا للذهاب إلى عمله، لكن لحظة.. قد تذكر أن اليوم لن يكتمل اليوم أيضًا فهو لم يرَ (أفروديت) منذ فترة، لا يعلم أين يجدها، اليوم صعب بدونها، عقارب الساعة لا تدور إلا بإذنٍ منها..

فهو لا يعلم ماذا بها؟

هناك شيء غريب بداخلها تكتمه ولا تستطيع أن تبوح به..

إنه يشعر بكل هذا..

يشعر وكأنها تنخلع من جذور الجمال!

وكأن هناك دخيلًا يُنغص عليها حياتها معه..

لم تعد تلك الوردة التي أحبها..

لم تعد ذلك البستان الذي يزهر كل يومٍ لينبت له من ثمار الحب أجناسًا وأجناس..

يخشى أن يصيبها مكروه أكثر من ذلك!

يخشى أن يسلبها منه الرب في ساعة غضب، لكنه يحاول أن يهدأ، يحاول أن يتماسك، يحاول ألا يظهر ضعيفًا يائسًا كما كان من قبل، ليهرب من خوفه هذا برسائله السرية مع الله، ليحضر كتيبه الخاص بتلك الرسائل شارعًا في الكتابة...

«يا الله.. أخبرتك أنني أخشى أن أعود للحزن من جديد، أخبرتك أنني أخشى أن يسرقني كل شيءٍ أحببته، فلماذا؟ لماذا تسعرني بالعجز من جديد؟!

أما بعد..

ناجيتك، ودعوتك، وبكيت بين عرشك..

كل هذا ولم تسمعني حتى الآن! تلك الرسائل لم تصل لك أم ماذا؟ ألم تبعث إليك الملائكة بدموعي المكتوبة تلك؟ ألم تهتز السماء من صرخاتي الموجعة؟!!

يا الله طيب خاطري وقلبي، فقد اتسع الحزن أكثر وأكثر..

يا الله.. خذ بيدي أو خذني إليك..

يا الله قد هرم قلبي قبل أن تهرم لحيتي، طيبني، ساعدني، خذ بيدي ولا تأخذها مني..

تسمعني بالتأكيد! فرجاءً أرشدني لما يريح قلبي فقط..فأنا منهك يا الله، منهك ولا أستطيع أن أقاوم أكثر من ذلك..

الموج عالي وأنا لا أستطيع السباحة، فكيف لي النجاة يا الله؟ أخبرني، دلني، قل أي شيء، أعطني أية علامة تطيب بها خاطري وأوجاعي..

لا تدعني هكذا أصارب بمفردي، أريدك عونًا لي..

ساعدني.. فنفسي تشفق عليَّ وكتبي تشفق عليَّ ونغماتي تبكي معي وتشفق عليَّ، ألا تشفق عليَّ أنت أيضًا يا الله؟!!

ألا تشفق على عبدك المسكين هذا؟!!إنه ممزق يريد منك أي شيءٍ ليعود كما كان قديمًا، ممزق يا الله..

أحد خلقك»

ويغلق الكتيب باكيًا لا يعلم ماذا عليه أن يفعل، ما يفعله هو التضرع برسائله تلك إلى الله لعله يستجيب له ولتلك الدموع

المرسلة، فاليوم لا يبشر بأي خير، فقلبه منقبض من هذا اليوم الغريب، هذا اليوم الكئيب، هذا اليوم الذي لا يعلم خاتمته غير الله.

يذهب (عابر) من منزلِهِ لعمله ويمتطي سيارته ليجد أنها مصدومة، ولا يعلم من الذي فعل تلك الفعلة، ليزمجر وتظهر على ملامحه العصبية ناظرًا للسماء صائحًا...

ـ لماذاااااا؟!! لماذا كل هذا؟

فيصعد إلى سيارته ذاهبًا بها إلى الميكانيكي ليصلح ما بها من صدماتٍ وعيوب، لكنه قد تأخر على العمل بعدما ذهب بالسيارة إلى الميكانيكي ولا يعلم ما الذي يجب أن يفعله الآن؟! إلا أنه قد ترك السيارة لتتم صيانتها وذهب إلى عمله في سيارة أجرة، لكنه كان قد ذهب متأخرًا فيخصم له نصف يوم ويزداد الطين بلة محاولًا أن يجمح زمام غضبه ولا يطلقه، لكنه كان ينفس عن غضبه بالعزف، فالعزف على أيةِ آلة موسيقية يمكنه أن يطرد منك الغضب كطرد إبليس من رحمة الرب، وهو الآن لا يملك آلته ولا يعرف ما الذي يجب عليه أن يفعله ليرحل عنه هذا الغضب، فيشرع في فتح حقيبته مخرجًا منها كتيب الرسائل، ليبدأ الكتابة كطريقةٍ أخرى ينفس فيها عن غضبه المكلوم...

«ماذا فعلت لأجني منك كل هذا؟! أرجوك قل لي ماذا فعلت لكل هذا؟!لقد ناجيتك وأنت لم تعر أية قوة لضعفي هذا، فلماذا؟أما بعد..

توسلت، بكيت، صليت، ناجيت، ماذا أفعل أكثر من ذلك؟ لماذا لم تكترث لحالي؟! أي ذنب ارتكبته لتعاقبني بهذا اليوم اللعين؟! قل لي شيئًا يا الله، أنا ممزق وكل يوم يمر يزداد هذا التمزق، سأصبح أشلاءَ إنسان وأنت تعلم وأعلم بهذا..

مُد لي كفوف رحمتك يا الله وانتشلني من هذه الأمواج العاتية، فأنا أغرق وأغرق وأغرق، وبعدما مددت لي طوق النجاة لم أجده!

أنا لم أضعه يا الله، فأين ذهب هذا الطوق إذًا؟! أنا راهب في معبدك فارحمني، أين الخلاص يا الله؟

أين الخلاص يا الله؟

أين الخلاص يا الله؟!

أحد خلقك»

***

ـ أوشكت نهايتها أن تقترب أخيرًا.

تخرج تلك الكلمة من فم (هيرا) وهي تجلس بصحبة (أثينا) والسرور والفرح يقدحان من ثغرها، فقد فعلت ما كانت تتمنى، ففي أوقاتٍ كثيرة يمكن لإحساس الغيرة أن يقضي على كل شيءٍ جميل، يمكنه أن يمحي كل ما هو يلمع، يمكنه أن يفتت أي شيءٍ كما فعلت (هيرا).

تجيبها (أثينا) بفتورٍ لتقول:

ـ نعم أوشكت.

لتقول (هيرا) باستغرابٍ شديد:

ـ ماذا بكِ؟ لِم كل هذا الفتور؟!

تجيبها (أثينا) بصوتٍ يكاد يكون عالقًا في حلقها:

ـ لا أعلم، أشعر بالذنب تجاه أفروديت، أصبحت شاحبة للغاية، لا يمكنها حتى أن تبتسم، أصبحت أضعف من أوراق الخريف المتساقطة.

فتقول (هيرا) بكل عصبية:

ـ ذنب! أي ذنبٍ هذا؟! هي امرأة فتنت أهل أولومبوس جميعهم، فكان لا بُد أن نتخلص منها.

لتضحك (أثينا) ضحكةً ساخرة قائلةً:

ـ هل صار الجمال جريمة؟! هل نعاقبها بسبب جمالها؟!! إن كان يجب أن نعاقب أحد فلنعاقب كل من فُتن بها، ما ذنبها هي؟!

لتشعر (هيرا) بصدق تلك الكلمات، لكن لا، لا تريد أن تستسلم لتلك الفكرة وتشعر هي الأخرى بالذنب لتقول بكل عصبيةٍ:

ـ وجودها أكبر ذنب، يجب أن ترحل لنعيش نحن بسلام.

ـ نحن من؟!

ـ نحن، ربات هذا الجبل.

ـ ومن قال أن برحيل السلام سيحل السلام؟!

فتصمت (هيرا) للحظاتٍ لا تعلم ماذا يجب عليها أن تقول، لا تعلم إن كان ما فعلته صحيحًا أم لا؟ لكن كيد النساء يعمي النساء عن الطريق الصحيح، فتجيبها بانفعالٍ شديد:

ـ ألم تكن تلك فكرتك من البداية؟! ألم تكوني أنت الرأس المدبر لتلك المؤامرة؟!

ـ لا تحمليني أخطاء أفعالك يا هيرا، فأنا لم أقل أن تفعلي تلك الفعلة المشينة.

ـ أنا لم أفعل شيئًا، زيوس هو من فعل وفكر ودبر.

ـ هل فعل ذلك من تلقاء نفسه؟!! ألم تكوني أنتِ من دفعه لفعل ذلك؟!

ـ نعم لكن...

تقاطعها (أثينا) بانفعالٍ شديد:

ـ لكن ماذا؟ أصلحي ما بدأتِه، فالمرأة أوشكت نهايتها على الاقتراب.

لا تعلم ما الذي عليها فعله، فهي تعشق إلى حد الجنون، ففكرة أن شخصًا ما سيسلب منك معشوقك فكرة مرهقة للغاية، لكنها لا تقدر على أن تفعل أي شيءٍ الآن، فقد اقتربت النهاية بالفعل!

تدخل الخادمة البشرية الجميلة عليهما لتقول:

ـ حضر مولاي زيوس جلالتكما، وهو يريدك مولاتي هيرا.

لتنظر (هيرا) إلى (أثينا) بارتباكٍ شديد وتقول لها:

ـ سأذهب أنا لأرى ما...

فتقاطعها (أثينا) بحزم لتقول:

ـ اذهبي، لكن افعلي ما اتفقنا عليه، حسنًا!

لتنظر لها الربة (هيرا) بحيرةٍ شديدة ولا تجد من الكلمات شيئًا ينجيها من صرامة الربة (أثينا)، فتقوم من مخدعها مليئة بالحيرة لا تعلم ما الذي يجب عليها فعله، وتجد (زيوس) أمامها وعلى وجههِ علامات الريبة لتوجِّه إليه سؤالًا قائلة:

ـ ماذا بك؟! ما الذي حدث؟!

ليجيبها بصوتٍ هادئ:

ـ لا شيء يا عزيزتي، لا شيء.

وتسترسل هي بالتفكير حتى انتهى بها المطاف في أنه كان بالتأكيد مع معشوقةٍ من عشيقاته وقد أرهقته بشدة، لتقول بصوتٍ مختنق:

ـ لا عليك جلالتك.

فينظر لها قائلًا:

ـ ماذا بكِ؟ هل حدث شيء ما اليوم؟!

ـ لا لا لم يحدث شيء، أنا فقط كنت أريد أن أقول أن...

ليقاطعها قائلًا:

ـ أعلم، أعلم ما تودين قوله، أوشكت النهاية أخيرًا على الاقتراب، ستفنى أفروديت إلى الأبد عما قريب، سأرسلها بركاتٍ إلى السماء الأم، أسعيدة بذلك؟

لتدخل بين ذراعيه بكل هدوءٍ قائلة:

ـ سعيدة، سعيدة بالتأكيد.

***

يخشى أن يحزنها، يحبها إلى حد الجنون، لا يعلم ماذا عليه أن يفعل ليرجعها كما كانت سابقًا، يريد أن يراها كما رآها في أول مرة، كانت وما زالت أجمل امرأةٍ رآها في حياته، أصبح يخشى من عالمه الخاص، يخشى أن يذهب ولا تُكتب له الرجعة مرة أخرى.

لا يوجد مفر، لا سبيل للهرب من الأحزان، الانعكاسات الداخلية تنطبع على أفكاره وخيالاته، أصبح عالمه سجنًا هو الآخر، أصبح يهرب منه هو الآخر كي لا يرى محبوبته تذبل أمامه هكذا، لا يقوى على أن يراها هكذا، لكن لا، يجب أن يكون بجانبها حتى وإن رفضت أن تفصح عما بداخلها، محاولًا أن يواجه هذا العالم المتقلب.

لم يعد يشعر بالارتياح حتى في عالمه، لكن لا بُد أن يراها ويعلم ما الذي قد أصاب قلبها، ليذهب لها فيجدها في أسوء حالاتها، لا يعلم ما الذي يجب أن يقال، لا يعلم ما الذي عليه فعله؛ ليقف أمامها صامتًا منتظرًا منها أن تبدأ هي الحديث، لكنها ظلت صامتة هي الأخرى، لا تعلم هي أيضًا ما الذي يجب أن يقال، ولا تعلم ما الذي عليها فعله، لكن النظرات في هذا الموقف كانت تتحدث بحديثٍ أبلغ من الكلمات، ليشرع هو بالكلام قائلًا:

ـ ماذا بكِ؟! أنا لا أعلم ما الذي حدث لكِ، لقد كنتِ كالشمس وقت مشرقها فما داعي الغروب الآن؟!

تنظر له بوجهٍ شارد لا يعطي أي تأثير ولا أية استجابة رغم أن عينيها تفيضان بالحزن الشديد، لكنها تعلم أن الحديث الآن ليس له فائدة، فما تشعر به حاليًا قد رسخ في روحها ولن ينزع أبدًا.

تخرج عن صمتها هذا لتقول بكل عصبية:

ـ كَفى، كَفى أكاذيب وترهات، لا تعتقد أن كلماتك تلك سترجع أي شيء، لا، فما رحل لن يرجع.

لا يفهم ماذا فعل، هل هو السبب في تلك الحالة التي وصلت لها أم ماذا؟! فالتجاعيد قد احتلت وجهها وكأنها امرأة قد وصلت لأرذل العمر، ليقول وفي صوته حسيس الخوف:

ـ ما الذي حدث، أريد أن أعرف فقط ما الذي فعل بكِ كل هذا؟!

لتضحك (أفروديت) ضحكةً ساخرة لتقول:

ـ ما الذي فعل بي كل هذا؟! ألا تعلم؟!! حقًا ألا تعلم؟!

ليجيبها (عابر) بحيرةٍ شديدة:

ـ أقسم لكِ أنني لا أعلم، أرجوكِ أخبرينني ما الذي حدث؟

ـ أرجوك لا تتصنع البراءة، كنت أعتقد أنك مختلف، لست مثلهم، كنت أحسبك هذا الشخص الذي جاء ليأخذ قلبي وعقلي ووجداني، لكنك لم تكن كذلك، لم تكن من كنت أحسبه، فقد كنت مثلهم، شهواني كما كانوا.

ليتعجب (عابر) من هذا الاتهام الغريب، ويقول باستغرابٍ شديد:

- ماذا؟! ما هذا الذي تقولينه؟! أنا لم أكن مثل أحد، لقد أحببتك حبًا خاليًا من الشهوات.
- كف عن الكذب رجاءً فإنني أرى كل شيءٍ في عينيك، أرى كم كنت مجرد نزوة في حياتك، لقد كنت أحتاج من يحبني فقط، أهذا الشيء بكثير؟!
- أفروديت أقسم لكِ أن هناك خطأ ما، فدعيني أصلح هذا الخطأ.

لتخرج منها ابتسامة تدل على أن الأمل قد دُفن وتم أخذ عزائه، وتقول والوهن يزداد فيها:

- لم يعد هناك شيء قابل للإصلاح، لم يعد صدقني.

ويجيبها والدموع في عينيه تأخذ نصيبها من الموقف:

- لا بل صدقيني أنتِ، سأصلح كل شيءٍ أقسم لكِ...

وفي هذا الوقت كانت تتلاشى، كانت تتطاير مثل الرماد، أصبحت فتات، لم يعد لها أي وجود وسط هذا العبث، اختفت وهلكت ونفيت، نفيت إلى عالمٍ آخر لا يوجد به أوجاع، ليجد أنها قد رحلت، رحلت للأبد، وأن هَذا الجسد الجميل تحول إلى رماد يتناثر مع الرياح، وهو، هو لا يعلم ماذا يفعل، أصبح كالطفل الذي ترك يد والدته فَضلَّ الطريق، يهرول مسرعًا لهذا الرماد يلملمه من جديد محاولًا أن يعيده لحالته الأولى، يبكي ويصرخ وينتحب وهو يحتضن هذا الفتات، قلبه يعتصر حزنًا، يكاد أن يختنق، يريد

أن يُسمع العالم كله صراخه، لتعلو صرخاته وتنحدر دموعه حدادً على قلبه المنكسر، لتعلو وتعلو صرخاته حتى يقوم من على فراشهِ وهو يصرخ وجسده يرتجف لا يصدق أن هذا قد حدث، لا لا لا بالتأكيد كان يحلم، نعم نعم كان حلمًا بالتأكيد، حلم!

لا بل كان كابوسًا، بالتأكيد كان كابوسًا، وكل شيءٍ في الأصل بخير، لا يستطيع أن يقنع نفسه بغير ذلك، لكن الحقيقة هي أن كل شيءٍ قد انتهى، لم تعد هناك (أفروديت)، لم يعد الجمال موجودًا في هذا العالم، كل شيءٍ جميل قد رحل، رحل للأبد، لتتوالى الصرخات في أصداء المكان والدموع أمطار تبلل أضلعه، فيقوم كالمجنون ليطيح بكل شيءٍ في الغرفة، فهنا تجد الكتب قد استقرت أرضًا، وهنا تجد بعض الزجاج المحطم في ركنٍ آخر، وهنا ملابسه قد تناثرت في أرجاء الغرفة، لا يعلم ما الذي يفعله غير هذا، يصرخ ويحطم، يصرخ ويحطم، يصرخ ويحطم دون جدوى، ليجد نفسه صريعًا ملقى على ظهره إثر هذه الصدمة ولا يشعر بأي شيءٍ يحيط به، لا يرى إلا الظلام، لا يرى سوى كل مشهدٍ قد عاشه مع معشوقته (أفروديت)، لا يرى سواها، فهي من ملكته، هي ملاكه ومالكته ومملكته، لكنها قد رحلت لسببٍ لا يعلمه هو!

وفجأة يجد أمامه هذا المسخ من جديد، هذا المسخ الذي رآه مسبقًا في العالم الأثيري، لا يقوى على الحركةِ وكأنه قُيد بشيءٍ لا يعلم ماهيته، وهذا المسخ يقترب أكثر وأكثر، و(عابر) لا يستطيع

حتى الصراخ أو التضرع لأحد، ليحاول ويحاول ويحاول حتى صرخ بكل ما أوتي من وجع وقهرٍ وظلم، وتعلو صرخاته في وجه هذا المسخ أكثر وأكثر وكأنه يزأر في وجهِ كل تلك الأحاسيس المحطمة بداخله.

يزأر أكثر وأكثر في وجهه، حتى كف هذا المسخ عن الاقتراب منه وبدا كأنه يتشقق، لتكثر تلك التشققات ويتحطم كالزجاج الهش، و(عابر) مستمر في الصراخ حتى يقوم من غفلتهِ مفزوعًا ليجد أن الغرفة منقلبة رأسًا على عقب، وأيقن أن رحيلها لم يكن حلمًا أو كابوسًا، بل كان الحقيقة المطلقة.

***

لا يذهب للعمل، ولا يخرج من غرفته، لا يأكل أو يشرب، لا يريد أي شيءٍ يجعله على قيد الحياة، لا الكتب، أو الكتابة، أو العزف، اعتزل كل شيءٍ كان يحبه، ترك كل ما كان يشتهيه في هذه الدنيا، لا يريد أي متاع أو فرح أو سرور، لا يجيب على أحد ولا يفتح باب غرفته لأي أحد،

يسمع طرقاتٍ على باب غرفته وكالعادة لا يجيب، لتصاحب تلك الطرقات صوت صديقه (فهمي) قائلًا:

ـ عابر هذا أنا، افتح أرجوك.

فلا يجد (فهمي) أي رد، ليحاول من جديد معه قائلًا:

ـ عابر أرجوك افتح لي، أريد أن أحدثك في موضوعٍ لا يحتمل النقاش.

ولا يجد أي ردٍ أيضًا، ويظل هذا الحال مستمرًا حتى فتح (عابر) الباب، فكما يقولون «الزن على الودان أمرٌّ من السحر!»، ليجد (فهمي) صديقه في حالةٍ مزرية بهذا الشعر الأشعث وتلك الذقن الغير مهندمة، متفاجئًا بهذه الحالة التي وقع صديقه أسيرًا لها، ولا يعلم ما سببها أو لِم وصل لهذا الحد من العزلة، محاولًا أن يُخرج منه أية جملة مفيدة لكن بلا فائدة، لكن (فهمي) لم يستسلم، وظل وراءه حتى قال له كل شيء، كل شيء بمعنى كل شيء، عن ذلك الكتاب والعالم الأثيري وعن محبوبته، ظن (فهمي) أن صديقه قد أصابه مس، لكن هذا محال، فعقل هذا الشاب أكبر بكثير من أي مس، فيحاول صديقه أن يخرجه من تلك الحالة قائلًا:

ـ أنا لا أعلم حقًّا ما الذي يجب عليَّ قوله؟ فما تقوله أقرب لتلك الروايات والقصص التي نقرؤها، لكن عليك تجاوز كل هذه الأمور، أنت أكبر من أي كسرٍ يصيبك يا صديقي.

فلا يجد (فهمي) أي ردٍ من صديقه غير الدموع المنهمرة منه، ليقوم (فهمي) مسرعًا لمكتب صديقه ليحضر له ورقة وقلم ليكتب، ليكتب كل شيءٍ بداخله، فهو يعلم أن الكتابة تريح صديقه

وتخرج أوجاعه، لكن برغم أن الكتابة تُخرج الأوجاع إلا أن قراءة ما كُتب ترجع الذاكرة لتلك الأوجاع من جديد.

ليجد (فهمي) كتيبًا صغيرًا مكتوبًا على غلافه «رسائل إلى السماء»، ليتعجب من هذا الاسم، ليفتح ويقرأ ليلتمس في رسائل صديقه شيئًا من الإحساس الصادق، لا يستطيع أن يكف عن القراءة ولا غلق الكتيب، ليلتفت لصديقه قائلًا:

- لِم تخفي كل هذا الجمال في غرفتك فقط؟! لا بُد أن يظهر للنور، لا بُد أن تعرضه على أيةِ دار نشرٍ ليصل إحساسك هذا إلى الناس.

ليقول (عابر) في فتورٍ:

- كف عن المزاح يا فهمي أرجوك، أنا لست في مزاجٍ جيد لتقبل تلك المزحة.
- أقسم لك أنني لا أمزح، سأعرضها على عدة دور للنشر لتأخذ تلك الرسائل حقها، أنت لا تعلم مدى...

وفجأة وقعت بطاقة من هذا الكتيب في وقت حديث (فهمي) ليلتقطها من على الأرض ويجد أنها بطاقة لدكتور نفسي، فيتعجب (فهمي) من هذا ويقول لصديقه:

- أتذهب لطبيبٍ نفسي يا عابر؟!
- لا لم أذهب، لقد وجدت هذه البطاقة في ملابسي بالصدفة ولا أعلم من أين جاءت؟ وكأنها منة من

الله لي، أفكر صدقًا أن أذهب لطبيبٍ نفسي، فحالتي النفسية غير مستقرة.

ـ إن كان هذا سيريحك فاذهب، وأنا سآخذ تلك الرسائل لأعرضها على دور النشر كما اتفقنا.

لتدور الفكرة في رأس (عابر) بالتنفيذ، فقد كان يريد أن يذهب من فترةٍ لطبيبٍ نفسي إلا أن الفكرة كانت تهرب من رأسه إلا أنه الآن قد عزم على الذهاب.

***

ـ مساء الخير، أريد أن أسجل اسمي للكشف.

تخرج تلك الكلمات من (عابر)، فبعد شهرين أخيرًا قرر الذهاب لهذا الطبيب الذي وجد بطاقته بالصدفة في ملابسه، ليسجل اسمه وينتظر حتى أخبرته الممرضة أنه قد حان دوره، ليدخل على الطبيب مُلقيًا التحية، فيلتفت له الطبيب وعلى وجههِ أثر صدمة، كأنه رأى شبحًا، ليقول الطبيب بطريقةٍ تنم عن الغضب:

ـ ما الذي تريده؟ ألم يكفِك ما أخذته؟!

ليتعجب (عابر) من كلام الطبيب ولا يعرف ما سبب كل هذا الغضب! فيجيبه باستغرابٍ قائلًا:

ـ أنا لا أريد شيئًا يا دكتور، ولم آخذ أي شيء، أنا لا أفهم عن ماذا تتحدث؟!

- لا تفهم! كف عن تلك الألاعيب فإنك لن تخدعني من جديد.
- أقسم لك أنني لا أتلاعب، فقد جئت حتى تعالجني.
- بالتأكيد، فأمثالك يحتاجون لعلاج، أنت أكثر إنسان استغلالي قد قابلته، أخبرني الآن ماذا تريد؟

ليصرخ (عابر) في وجه هذا الطبيب والدموع تلمع في عينيه قائلًا:

- كف عن هذه المهزلة، أنا قادم للعلاج وأنت تشوهني نفسيًا أكثر وأكثر، اجلس وأخبرني ما الذي حدث حتى لا أفقد صوابي أكثر من ذلك.

ليشعر الطبيب أن (عابر) يقول الحقيقة، فالعيون لا يمكنها الكذب أبدًا!

يجلس الطبيب (محسن) ليقص عليه كل ما حدث، ينصدم (عابر) مما سمع، لا يصدق أنه قد جاء ليستغل هذا الطبيب، لكن وجود البطاقة معه يفسر كل شيء، لكنه لا يتذكر أي شيء، هل هو بالفعل مريض؟! إنه لا يعلم، لا يعلم أي شيء، أصبح أكثر تشتتًا من ذي قبل، ليقول الطبيب بعدما أنهى حديثه:

- هذا كل ما في الأمر، وأنت تقول أنك لا تتذكر أنك جئت إلى هنا من الأساس، لكن لعل ما جئت من أجله الآن يساعدنا على أن نصل لتفسيرٍ لما حدث.

ليقول (عابر) والوهن قد ظهر على صوته:

ـ سأحكي لك، لكن لا تظن أنني مجنون.

ليبتسم الدكتور (محسن) قائلًا:

ـ أنا لا يأتي إليَّ عقلاء.

فيبدأ (عابر) في سرده لكل الأحداث التي حدثت معه من بداية إنكار صديقه (فهمي) إعطائه الكتاب، ودخوله العالم الأثيري، ومقابلة هذا العجوز في هذا العالم، وحبه لـ (أفروديت) ورحيلها لسببٍ لا يعلمه، فآخر شيءٍ ذَكرته أنه كان مثلهم، كان شهوانيًّا، ويحاول الطبيب أن يربط كل تلك الأحداث ببعضها ليقول له بعد صمتٍ طويل:

ـ هناك حلقة مفقودة يا بني، لكن ما أظنه أنك تعاني من الشيزوفرانيا، بالتأكيد تعلم ماهية هذا المرض، فهناك شخصٌ آخر بداخلك، شخصٌ أقذر مما تظن، فخروج هذا الشخص ناتج عن ضغوطٍ نفسية قد تعرضت لها، شخصٌ شهوانيٌّ استغلاليٌّ مستبد، شخصٌ قد رسم لنفسه عالمًا آخر، ويبدو أن صديقك لم يعطِك الكتاب كما قال، بل هذا الشخص الذي أعطاك إياه، لكن عقلك قد صور لك أن صديقك هو من أعطاه لك، وأظن أن كل ما كنت تقصه لم يكن حقيقيًا، بل كان كل هذا في خيالك، كل شيءٍ قد شعرت به

كنت تحتاجه وقد صور لك هذا الشخص كل شيءٍ كنت تحتاجه، أنا لا أؤمن بالإسقاط النجمي، قرأت عنه لكن لم أؤمن به، لكنك آمنت به، فصور عقلك كل تلك الأحداث التي رأيتها، وأفروديت كانت كل شيءٍ جميل بداخلك، أو بمعنى أصح المرأة التي كنت تريدها، وأنت تقول لي أنك مولعًا بالقراءة، فيبدو أنك قرأت عنها مسبقًا فتعلقت بتلك الشخصية ليصورها لك عقلك الباطن في أحلامك، وموت أفروديت أو رحيلها كان بسبب هذا الشخص الذي بداخلك، أنا لا أعلم ماذا يُسمي نفسه لكنه شخصية ملعونة، أأسف على كل ما قلته لكن هذا كل ما توصلت إليه.

لا يعلم ما الذي يقوله (عابر) في هذا الموقف، فقد علِم الآن أنه مريض نفسي، عنده انفصام في الشخصية، عاش في وهم ولم يستطع الاستيقاظ منه حتى انصدم بالواقع، لا تطرف له عينً وكأن صاعقة نزلت عليه من السماء، لم يتخيل أبدًا أن يصيبه مرض نفسي، فعقله كان يتحاكى به الناس، والآن أصبح مجنونًا!فخرج عن صمتهِ بعد فترةٍ ليقول بصوتٍ يشوبه الصدمة:

ـ إذًا أصبحتُ مجنونًا، قلها.. قل لي يا عابر لقد أصبحت مجنونًا.

- المرض النفسي ليس بجنونٍ يا بني، بل هي مجرد اضطرابات داخلية تخرج بصورةٍ ما، يمكننا أن نبدأ العلاج ويتم شفائك على خير.

يضحك (عابر) ضحكاتٍ مرتفعة والدموع تملأ عينيه ليقوم من مجلسه وهو يضرب كفٍ على كف، لم يكن يصدق أن يأتي هذا اليوم ليُجن فيه، فيجول الشوارع والأزقة وهو يحدث نفسه غير مصدقٍ كل هذا الكلام الذي قاله الطبيب، ليرن هاتفه واجدًا صديقه (فهمي) هو المتصل مجيبًا عليه:

- أريد أن أقابلك يا فهمي، أريد أن أتحدث معك في موضوعٍ ما.
- ماذا بكَ؟! لِم صوتك يحمل كل هذا الحزن؟! أنا في الحقيقة كنت أحدثك لكي أقابلك وأعطيك كتيبك، أعتذر لك يا صديقي لكن دور النشر لم توافق على ما كتبت، ويقولون أن به تطاول على الذات الإلهية!

لتعلو ضحكات (عابر) أكثر وأكثر، ليقول صديقه بحذرٍ:

- ما الذي يضحك؟! عابر هل أنت بخير؟!!
- بأفضل حال، بأفضل حال يا صديقي.

ويغلق (عابر) الخط وتستمر ضحكاته في الارتفاع والناس تراقبه في صمتٍ وذهول، فهم لا يدرون كم الانكسار الذي أصابه،

ولا يعلمون كيف بات قلبه مريضًا بالحزن، فكل منهم في همه درويش.

يصل (عابر) إلى منزله ولا يعلم هل كل هذا حلم وسوف يستيقظ منه أم أن هذا أمر واقع قد فرض عليه؟

يدلف لغرفته ناظرًا لها وكأنه أول مرةٍ يدخلها، يتأمل كل ركنٍ فيها كأنه التأمل الأخير، ينظر من شرفتهِ للسماء ولا يعلم ماذا يقولُ لها، لكنه يبكي لعل الدموع تقول ما لا يستطيع لسانه قوله، ثم يبدأ في العزف وكأنها المرة الأخيرة التي سيعزف فيها، وفجأة يجد باب غرفته يشرع ويطل منه والده، ليقول له بصوتٍ غليظٍ:

ـ كُف عن تلك الضجة أيها الفاشل فأنا لا...

ليقاطعه (عابر) بعصبيةٍ شديدة:

ـ أنا لست فاشلًا بل أنت الفاشل!

ويقف الأب في صدمةٍ من واقع ما سمع، وقد جعلته الصدمة لا يستطيع أن ينبس ببنت شفه، ليُكمل (عابر) صيحاته:

ـ نعم، أنت الفاشل، أنت من فشل في أن تكون أهم شيءٍ في الوجود، فشلت في أن تكون والدي، نعم فأنت أب فاشل، أتتذكر متى آخر مرة ضممتني بها إلى صدرك؟! أتتذكر؟!!

ليصمت الأب ولا يجد إجابة يجيب بها، ليكمل (عابر) والدموع تملأ عينيه:

ـ بالتأكيد لا تتذكر، أتتذكر متى آخر مرة جلست معي فيها وحدثتني عن أموري الشخصية؟! بالطبع لا، أنت حتى لا تتذكر أنك والدي، اخرج من غرفتي، اخرج رجاءً فأنا لا أريد أن أدخل في هذا الصراع الآن، اخرج!

ليظل والده صامتًا ولا يعلم كيف يجيب على هذه الاتهامات الموجهة له، ليخرج فقط من الغرفة مغلقًا بابها عليه، وينفجر (عابر) بالبكاء مرة أخرى متجهًا لشرفتهِ محدقًا بالسماء بنظراتٍ معاتبة، ثم يُسرع لإحضار كتيبه الصغير ويشرع في كتابة ما خطر على قلبه...!

***

«الرسالة الأخيرة يا الله وافعل بي بعدها ما تريد..

أما بعد..

أرسلت لك الكثير والكثير من الرسائل يا الله ولم تجبني، لم أجد منك ردًا واحدًا..

رفضت رسائلي يا الله! رفضت تضرعي لك! رفضت توسلاتي ودموعي!! لم أكن أتخيل هذا، صدقًا لم أكن أتخيل أبدًا أن ترفضني، ترفض عبدك يا الله، أم أن كل هذا اختبار قد وضعتني فيه؟!

لم أعد أتحمل أي اختبارات يا الله، فقد أصبحتُ مجنونًا، هذا ما استنتجته، أريد أن أراك وأحدثك لأعلم لماذا كل هذا ولماذا أنا تحديدًا؟!

أنت قلت أنك لا تحاسب المجنون حتى يعقل، فإن ألقيت بنفسي من تلك الشرفة فلن يحدث شيء صحيح؟! لن تعتبرني كافرًا لأنني قررتُ الانتحار، فأنا مجنون أليس كذلك؟!

أنت الحبيب، فأجبني..

يا الله، أنا أتمزق، قلبي وروحي لا يريدان أن يكملا معي الطريق، يريدان أن يرحلا، فهل تأخذهما الآن إليك وتأخذني معهما أم ألقي بهما من تلك الشرفة؟

أجبني رجاءً أم أنك تريد أن آتي لتجيبني يا الله؟

أقسم بك أنني أحبك، أحبك لدرجةٍ تجعل الملائكة تبني لي في السماء الأولى مقامًا لعشقي لك..

تلك آخر رسائلي لك يا الله..

فأجبني لعلي أستقر على طريقةٍ ترسلني إليك سريعًا..

أجبني فروحي احترقت وأصبحت رمادًا بلا قيمة، أجبني رجاءً..ضع لي علامة تقول لي أي شيء، لكن أنت العلامة يا الله، أبصرني فأنا على شفةِ حفرةٍ من الهلاك..

حدثني، قل شيئًا، اجعل السماء ترعد من فوقي، لِم لا تقول أي شيء؟

قل أي شيءٍ يا الله..

أرجوك...

قل أي شيء!

«أحد خلقك»